Fath Allāh, Hamzah

(باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام)

Bākūrat al-kalām

تأليف

حضرة الاستاذ الفاضل

واللوذعى الكامل الشيخ حمزة فتح الله

المفتش الاول للعلوم العربية بنظارة المعارف

المصرية والمدرس لدروسها العام

بمدرسة دار العلوم

الخديوية

هدية منه للمؤتمر العلمى الشرقى بمدينة استكهلم المنعقد بها للمرة الثامنة فى أوائل

شهر سبتمبر سنة ١٨٨٩ الميلادية وختام سنة ١٣٠٦ هجرية

حين وفادته عليه فى جملة الوفد المصرى

﴿ طبع ﴾

بأمر دولتلو الوزير الخطير مصطفى رياض باشا

رئيس مجلس النظار

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر البهية

سنة ١٣٠٨ هجرية

Fath Allāh, Hamzah

(باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام)

تأليف

Bākūrat al-kalām

حضرة الاستاذ الفاضل

واللوذعى الكامل الشيخ حمزة فتح الله

المفتش الاول للعلوم العربية بنظارة المعارف

المصرية والمدرس لبوسها العام

بمدرسة دار العلوم

الخديوية

هدية منه للمؤتمر العلمى الشرقى بمدينة استكهلم المنعقد بها للمرة الثامنة فى أوائل

شهر سبتمبر سنة ١٨٨٩ الميلادية وختام سنة ١٣٠٦ هجرية

حين وفادته عليه فى جملة الوفد المصرى

﴿طبع﴾

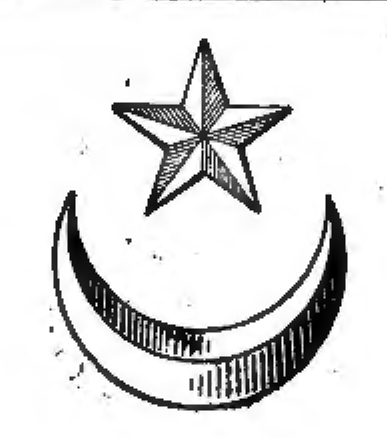
بأمر دولتلو الوزير الخطير مصطفى رياض باشا

رئيس مجلس النظار

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميرية ببولاق مصر البهية

سنة ١٣٠٨ هجرية



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله منزل الكتاب ذكرى لأولي الالباب ومودع الفرقان الهدى والتبيان ومفصل القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فهو الكتاب المبين والذكر الحكيم والهدى والفرقان والنور والبرهان والبيان والتبيان تكفل الحق بحفظه الى أمد رفعه فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لا تخلق جدته وان خلق الملوان ولا تبسر نضرته وان بسر النيران ولا تذوي زهرته وان ذوي الثقلان ولا تنضب مادته وان نضب البحران ولا تفنى آياته ولا تنفد معجزاته بل كلما انتهت العقول الى غاية ألفتها به بداية فلن تطفئه الافواه لانه نور الله مهما أبطل المبطلون وألحد الملحدون تزول الشم الرواسي ولا يزول وتحول الايام والسنون ولا يحول

فهو الذي لو هوت الافلاك من * جوانب الجو عليه ما شكا

ونشكره شكرا سرمدا سبحانه خلق الزوجين الذكر والانثى وأعطى كل شيء خلقه ثم هدى ۞ ونشهد أن لا اله الا الله ولا مولى لنا سواه وفق من شاء من العباد الى مناهج الرشاد ونشهد أن سيدنا ومولانا محمدا عبده ورسوله وصفيه وخليله شفيع المعاد وأفصح من نطق بالضاد ۞ صلى الله تعالى وسلم عليه وعلى آله الهادين وصحابته حماة الدين ﴿أما بعد﴾ فقد برح الخفاء وانجاب الغطاء ان الانسان نفس وجثمان وانه في ذينك الامرين بين قوتين متجاذبتين بل حرب عوان ومعترك نزال وطعان * فأيتهما ظفرت بالأخرى جذبته اليها قسرا فاما في درك الثرى أسفل سافلين وإما في درج

الثريا أعلى عليين بهيم شهوانى أو ملك روحانى والاول الجماء الغفير والثانى النزر اليسير

وان الملة السمحة الحنيفية والشريعة المطهرة المحمدية هى الحاسمة لتلك الادواء الناجعة فى هذا الدواء وهى المحجة البيضاء فى حوالك هذه الظلماء وهى المتممة الى يوم الدين مكارم أخلاق العالمين

وقد جعلت لذلك نهجا قويما وقسطاسا مستقيما فأمرت بمراعاة الفريقين والعدل بين تينك الضرتين النفسانى أولا وبالذات والجثمانى ثانيا وبالعرض ضرورة ان كل عامل اذا فقد الآله أبطل أعماله

ففى البخارى فى قصة عبد الله بن عمرو بن العاص أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له آخر القصة بل قم ونم وصم وأفطر فان لنفسك عليك حقا ولزوجك عليك حقا الحديث وقد كان يديم الصيام والقيام فلا يفطر ولا ينام لا جرم أن من كلف مطيته فوق طاقتها فقد خاطر بها وبنفسه لان المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ألا وان دون كل خير عقبات وموانع شتى تفوق المقتضيات ومن أعظمها نعمتا الصحة والفراغ المغبون فيهما كثير من الناس فقل ما اجتذبتا صاحبيهما الى غير الحضيض أو هوتا به الا الى مكان سحيق اللهم الا من عصم الله أو لاحظته عناية مولاه

واذا العناية لاحظتك عيونها * نم فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهى حبائل * واقتد بها الجوزاء فهى عنان

وان رغم أنف الاعرابى الذى يقول

ان الشباب والفراغ والجده * مفسدة للمرء أى مفسده

تباركت يا ألله الها واحدا وربا شاهدا خضعت لوحدانيتك الضمائر وقامت بشواهدها الظواهر أنت خالق الاسباب والمسببات أنت المؤثر فى جميع الكائنات أنت الهادى الى الرشاد أنت الموفق الى سبل السداد قدرتك باهية باهرة وآثارها فى العوالم زاهية زاهرة قلت لنار الخليل كونى بردا وسلاما فكانتهما ولم يجد أوارا ولا أواما ولاحظت عين عنايتك بعض خليقتك فجذبت ضبعيه وأخذت للخير

يديه مخالف السهاد ألذ من الرقاد في ارتضاع أخلاف العلوم واجتناء ثمرات الفنون خصوصا علوم الامة العربية أس الشريعة الاسلامية وهجر الكرى في بحبوحة تلك القرى حتى فاز بنيل القرى وهو أجنبي عن الامة ودينها وأثرها وعينها فجمعت الاضداد لاولئك العباد اذ لم تعقهم تلك العوائق ولا منعتهم هذه الموانع عن علم يقتنونه . ولا مجد يبتنونه أولئك الامم الاروباوية والملوك الغربية قد عنوا بكشف النقاب وازالة الحجاب عن كنه الامة العربية ولسانها وعلومها وأخلاقها وعاداتها وآدابها الى آخر ما يتعلق بها فأكرموا نزلها ورعوا ما خلص لهم منها حق الرعاية وقاموا له بأعظم الحفاية وأحسنوا وفادته فاجتنوا ثمراته

ثم هم مع ذلك غير واقفين عند هذا الحد بل لا يزالون في بحث وتنقيب وخفض وتصويب يخوضون في طلبته البحر والبر ويجوبون لبغيته السهل والوعر لا يلويهم عن طلابه مانع ولا يثني عزائمهم قاطع بل يتجشمون البلاء وأنواع البأساء ويبذلون النفس والنفيس من مرؤس ورئيس

وأنت خبير بأن من جد وجد ومن قرع الباب حظي بالجواب وقلما خاب من جاب ونحن الآن في كثير مما يختص بذلك اللسان كالعالة عليهم والنزلاء لديهم

فاللهم سبحانك وسعدانك ويا لله لهذا الرحم كيف قطعته الاقارب ووصلته الاجانب فبلت شجنته بلالها وأصبحت من أعظم ثمالها وهو من معنى قولهم ان لله خواص في الازمنة والامكنة والاشخاص

وبعد ففيم خوض المهالك من ذوي تلك الممالك الى ذلك وعم يتساءلون والام ينتهون الله تعالى أعلم بما هنالك فانك ان يممت مجتمعاتهم الشرقية ومحافلهم العربية

رأيت بها ما يملأ العين قرة * ويلهي عن الاوطان كل غريب

أو شمت مليكنا استكهلم حيث يحط الفضل رحاله ويشد العلم رجاله وينال الادب آماله ويبلغ المجد كماله ويعم العدل نواله وقد أقبل في مواكب كأنها كواكب وحاولت تمثيل الحال بلسان المقال .

تقول

تقول قد جاء المليك راكبا * وقام قس فى عكاظ خاطبا

ولما كانت عناية الجناب الخديو التوفيقى حرس الله تعالى كماله وأدام أنجاله ودولته ورجاله فى ظل أمير المؤمنين وخليفة المسلمين السلطان الغازى عبد الحميد خلد الله تعالى صولته وأدام دولته لا تزال موجهة الى نماء العلوم والمعارف بمصر المحروسة اقتضت مكارمه الشريفة اجابة لرغبات الملوك الاوربا وية ارسال وفد من الديار المصرية وفى جملته العبد الضعيف الى المؤتمر العلمى فى حاضرة استكهلم قصبة مملكة السويد والنرويج

وقد كنت فى وفادتى السابقة بأمره الكريم الى هذا المجمع عام انعقاده بفيينا حررت مقالة فى اثرها فهرست بما حضرنى من كتاب فقدته يسمى حقائق الانباء ووعدت بتأليفه ثانيا ان شاء الله تعالى وأن أهدى اليهم نسخة منه

ولم يحملنى على ذلك سوى استثارة الهمم من نصراء اللغة الشريفة العربية على المساعدة حتى أفضت نظارة المعارف المصرية الى سعادة على باشا مبارك فرسم لى بادئ بدء بالقاء درس عام فى اللغة العربية لطلبة دار العلوم الخديوية وأن يطبع ذلك الدرس تدريجا على نفقة الحكومة السنية واذا هو ادحضرته بهذا العموم موضوع الكتاب المذكور فتوسمت من ذلك أمارة النجاح وشرعت فى تأليفه على النحو الذى ذكرته وزيادة وسمى (بالمواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية) غير مكترث بما أتجشمه فيه من العناء فى جانب ما يجتنى من ثماره

وقد طبع من مقدمته الى يوم سفرنا من الاسكندرية عشرون ملزمة ها هى أيها الفضلاء بمجمع استكهلم بين أيديكم فتكرموا بقبولها على أن أرسل اليكم ما يتجدد طبعه اذ المرجو بفضل الله تعالى اتمامه فى ظل السماحة الخديوية ان شاء الله تعالى

ولقد كان فى عزمى الاقتصار على ذلك هذه المرة لولا أن أشار على من اشارته أمر ان أكتب شيأ فى شأن النساء فى الاسلام مما يختص بالعناية بهن وما توجبه الشريعة المطهرة من حقوقهن دفعا لما يتوهمه بعض جهال الاجانب من أن النساء فى شريعة الاسلام كالبهائم أو النعم السوائم ليس لهن رعاية ولا بهن حفاية وكانت تلك الاشارة قبيل

الرحيل بزمن قليل فكتبت ما يسره الله تعالى فى ذلك الشأن وكملته مع قصيد تمليك استكهلم بمدينة باريس وسميته ﴿باكورة الكلام على حقوق النساء فى الاسلام﴾ ومن الله جل شأنه أستمد العناية فى البداية والنهاية

ورتبته على مقدمة وعشرة أبواب

﴿المقدمة فى العمران البشرى وإنماء النوع الانسانى وتوقفهما على الزواج﴾

لما كانت الشريعة المطهرة كافلة بمصالح العالم معاشا ومعادا جاءت شاملة لجميع الاحكام التى بها قوام الدنيا والدين وإقامة أود العالمين وللحكمتين العلمية والعملية يعرف ذلك من سبر غورها وخاض بحرها

ومن رماها بغير ذلك مما هى منه براء فقد جاء شيأ فريا وظلمها ظلما عبقريا منشؤه عدم الوقوف على كنهها الاسنى فيما يختص بالاخلاق والمعاملات فان ذلك بعيد عن اللاغين لا ما نعلم أنهم يظنون أن ليس فيها الا ما يختص بالبعث والنشور وأحوال النشأة الأخرى وان شيأ سوى ذلك ليس له فيها حظ ولا أخذت منه بنصيب

وليس قولنا هذا من قبيل ما يقول الشاعر العربى * كل فتاة بأبيها معجبه * كلا اذ أن من أصولها عدم التقليد فى أصولها وثبوت الاصل ثبوت للفرع وقد عاب الله تعالى قوما بقولهم إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون

وبعد فانما نقول ما يشهد به الحس وتقتضيه البداهة ولا نزاع فيهما للعاقل غير أنها أشبه شئ بالعقد النظيم والبناء القويم متى قوض منه ركن أو نثرت منه فريدة ذهب رونقه وتداعى باقيه أو كاد يتداعى فأما ان أعطيت منها نفسك مالها وتقاضيت ما عليها لاح لك من كثب مصداق ما نقول والطبيب النطاسى الخبير بالداء ليس عليه الا أن يصف الدواء بأن يرسم بالعقاقير الناجعة فى العلاج ويأمر المريض بالحمية ويصف له من الاغذية ما يوافق اعتدال المزاج وإقامة البنية وإصلاح الفاسد ويحذره من سواه ثم هو ان جمحت به النفس بعد ذلك الى شئ من الشهوات المحظورة فرد جماحها وكبح زمامها كان هو والدواء عونا على الداء فأما اذا اقرم ونهم وشره فتخم ظل لا محالة فريسة عدوين وخصمين ألدين أحدهما الداء والآخر سلطان الشهوة وان شئت قلت نفسه الامارة فلا يجديه العقار نفعا ولا يذب عنه ضرا وهنالك يهدم الهيكل الجثمانى

ويزهق

ويزهق النفس الروحاني ويبادر مولاه بما كسبت يداه وهو عز وجل يقول بادرني عبدي بنفسه لأحرمن عليه الجنة ولا لوم ولا تأنيب على ذلك الطبيب

وأقول ان حكمة الحكيم جل شأنه لما قضت ببقاء هذه الحياة الدنيا الى أمد معلوم وأنها المزرعة للدار الآخرة جاءت الشريعة الاسلامية بالحض على عمرانها من هذه الحيثية بل لا حرج على قائل أن يقول انها من تلك الوجهة آخرة بحتة كما هو تأويل كلام علي عليه السلام اذ لم تخلق لك الدنيا الا لتنتفع بها انتفاعا أبديا في العقبى والا كانت دنيا مذمومة وعلى ذلك يحمل جميع ما جاء في الشريعة المطهرة من ذم الدنيا ومدحها أي انها ان تجردت عن المقاصد الاخروية كانت مذمومة والا فلا

ويوضحه أن النية عندنا هي المعول عليها في حياتنا وجميع أعمالنا وحركاتنا وسكناتنا حتى لو أن أحدا نواها في جميع ما ذكر فان عاداته تستحيل عبادات وأعماله تصير كلها قربات حتى ورد في الحديث الشريف نية المرء خير من عمله

ولولا أن شريطتنا في هذه العجالة قصارى القول وفحوى الكلام لأسهبنا في بيان ذلك أكثر مما ذكرنا ولا مراء أن العمران يصير بالنية من الصدقات الجارية التي لا ينقطع ثوابها بالموت وهو شامل لحفر الآبار والانهار وغراس الاشجار والثمار وبناء المآوي وغير ذلك مما وردت به الاحاديث متفرقة ومجتمعة وأي شيء أبعث على العمران من أن ينتفع به صاحبه في الدنيا ولا ينقطع نفعه في العقبى ولقد قال أئمتنا لو يعلم عباد الله رضا الله في احياء أرضه لم يبق على وجه الارض موضع خراب

وله في كتب الشريعة المطهرة باب مخصوص عنوانه ﴿احياء الموات﴾ وملخص الكلام فيه أنه سنة لما رواه النسائي وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم من أحيا أرضا ميتة فله فيها أجر وما أكلت العوافي منها فهو صدقة والعوافي طلاب الرزق كالبنائين والفعلة وسائر الدواب وقوله منها أي مما يخرج منها من النبات أو من أجلها كالاجرة للبنائين والفعلة وهذا الحديث صححه ابن حبان وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من عمر أرضا ليست لاحد فهو أحق بها قال أئمتنا ولا يتوقف ذلك على اذن الحاكم ويكون الاحياء بزرع أو بناء كما أسلفنا حتى لو وجد فيها معدنا من أي نوع كان ملكه وبقعته ما لم يعلم به من قبله والموات أرض لا مالك لها معلوم ولا ينتفع بها أحد وفي الحديث

احرث لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا وقال صلى الله عليه وسلم من باع دارا أو عقارا فلم يردد ثمنه فى مثله فذلك مال قمن أن لا يبارك فيه ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه عن التخريب وقطع الاشجار وهدم الديار ثم قد يضطر الى شئ من ذلك كما فى حادثة قوله تعالى ماقطعتم من لينة الآية الكريمة لعدم التمكن بدونه أو لنحو نكاية وهو مشاهد الآن فى الحروب الاورباوية المنتظمة

وهذه الاحاديث أوسع مجالا لشمولها زيادة على ما تقدم أنواع الكسب وفيها زيادة حض على الكد فى تحصيل المنافع الدنيوية واتقانها الى حد يشبه أعمال المخلدين حرصا على تواصل الثواب بعد الموت لانه اذا علم انقطاعه بدروس آثار العمل كان ذلك أدعى الى تشييده والحرص على إحكامه ولما كان لا ينبغى أن يحمله ذلك على التقصير فى الاعمال الاخروية المحضة أمر أن لا يسوف بالطاعات ولا يضيع فرص الاوقات وأظنك غير مرتاب فى أنه ليس وراء ذلك تحريض على العمران الذى هو قوام هذه الدنيا فحسبك فيه هذا المقدار

ولقد كان الشغف بالعمران من أخلاق ملوك العرب فى الجاهلية حتى أدركهم الاسلام على ذلك الامر ألا ترى ان حرقة بنت النعمن بن المنذر لما وفدت على سعد بن أبى وقاص بعد فتح القادسية وأكرم وفادتها قال لها سلى حاجتك فقالت لا أريد أيها الامير سوى خربة أعمرها وأرتفق منها فأمر عماله أن ينظروا لها قرية خربة فقالوا لا يوجد هنا خراب فقالت الحمد لله الذى وفق آبائى لأن يعمروا الدنيا ويسلموها لغيرهم عامرة فاجتهد أيها الامير أن تسلمها لغيرك كما استلمتها

وبه يعلم أن دعوى ابن خلدون فى مقدمة تاريخه ولوع العرب بالخراب ونسبة تلك المثالب اليهم بالامنوية فرية بلا مرية وهى لا تكاد تنطبق على غير البربر ومن على شاكلتهم فى جميع الامم فلعله يعنيهم أو لعل هذا الكلام مدسوس عليه لانه يأباه الدين والعقل حتى لقد أنكره عليه بعض علماء المسيحيين ففى صحيفة ١٣ من مؤلف الموسيو (ليون) المسمى ﴿مدنية العرب﴾ ما تعريبه

ان سكان نجد هم الذين قال فيهم الموسيو (بالجراف) وهو سائح شهير جال فى بلاد العرب

سنة (١٨٦٢) انما نجد بينهم كما نجد بين سكان مدينة شيفيلد و برمنجام (مدينتان شهيرتان بالصنائع فى انكلترا) مهرةً من المهندسين فى قدرتهم أن يصنعوا سككا حديدية ووابورات بخارية وآلات متنوعة من هذا القبيل الى أن قال وما يزعمه البعض من توحش العرب فنشؤه الجهل بحقيقتهم وحقيقة بلادهم اه

(قلت) وآثار الخورنق والسدير وقصر سنداد وغمدان وغيرها برهان على ذلك ومن طالع وصف جزيرة العرب للعلامة ابن الحائك الهمدانى رأى من فرط خصبها وطيب تربتها وجودة هوائها وكثرة معادنها وخيراتها ما يفوق الوصف ولقد سمعت فى استكهلم من أحد أعضاء مؤتمرها وهو الالمانى المتسمى عبد الوهاب أنه أقام بنجد ضيفا لابن رشيد مدة طويلة بقصد الوقوف على آثار الأبنية الجاهلية وأنه شاهد منها ما يفوق بحالته الحاضرة أعظم المبانى الشهيرة الآن فى أوروبا ونقل البستانى فى دائرة المعارف ردا على ابن خلدون فليراجعه من شاء

ونحن نعلم أن بعضا من الادعياء اختلق لهم أى العرب مساوى لمارفضه ومن نسبهم والتاصق بهم وألف فى ذلك لكنه لم يرتق هذا المرتقى ولا ولج ذلك المضيق وان لنا معه كلاما فى هذا المقام وسواء علقناه على المقدمة وهو مسطور فى المواهب مما لم يصله الطبع بعد

وانا وان سلمنا أنه قد يشذ فى الامم أفراد عن جادة أخلاقها وكريم أعراقها فلا مشاحة أن ذلك ليس بندحة للحكم على الجميع بذلك الشذوذ على أن ثمة فرقا بين العرب وهم أهل الرفاهية والنعيم من سكان الامصار وبين الاعراب وهم سكان البادية وأهل الشظف والخشونة

(فائدة)

الحرث الذى فى الحديث الشريف مصدر حرث كنصر بمعنى كسب المال ومنه الحرث بن همام فأما حرث الارض فيزيد على ذلك مصدر الفعالة

(وأما انماء النوع الانسانى)

فالكلام فيه ذو وجهين وجه فى حفظ نوعه ووجه فى انمائه ويجمع كلا الوجهين هذا

الكلام * ان الانسان لما كان نسخة العالم العلوى وسر الخليقة ومناط التكاليف الشرعية ولاجله بعثت الرسل وشرعت الشرائع السماوية ودونت الاحكام الدينية وبنيت له الداران دار النعيم حيث الحياة الابدية والنشأة الاخروية ودار الشقاء هذه الدنيا كانت عناية الحق تعالى به جلية لا تحتاج لبيان ولا لاقامة برهان

فخلقه على وجه أراد به حفظ نوعه وبقاء جنسه بأن جعل منه الزوجين الذكر والانثى ليدوم النتاج بالازدواج الى الامد الذى شاءه وسبق به علمه القديم فلو أنه لم يرد حفظ نوعه وبقاء جنسه لما خلقه بهذه المثابة ولا خلق لاجله المواليد وجميع السفليات وسخرها له ليرتفق بها فى حاجاته ولو بازهاق نفسها كما أباح له قتل ما يتوقع ضرره منها كالافاعى ونحوها وسخر له العلويات أيضا لتمام الانتفاع وخلق الجميع على ضرب من الازدواج قال تعالى ومن كل شئ خلقنا زوجين وقال تعالى خلق لكم ما فى الارض جميعا وقال تعالى وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه الى آيات كثيرة

وشرع له القصاص حرصا على حفظ النوع اذ قد جعل هدم بنيته وتخريب هيكله بازاء الشرك به حتى أوحى الى داود عليه السلام لما أراد بناء بيت المقدس لا ينبغى أن يبنى بيتى سفاك فقال أليس فى رضاك فقال أليسوا عبادى فان يقل قائل أليست الشرائع السماوية قد جاءت بالجهاد وهل هو الا ما ذكرت أى هدم بنية مع زيادة الاسترقاق قلنا ليس ذلك بالخطب الجلل بل هو من قبيل حفظ النوع الذى نحن بصدده وذلك معقول بالقياس على المحسوس وبيانه أن الجسم الصحيح متى اعتور أحد أعضائه فساد تخشى سرايته كالآكلة مثلا وجب ازالته ابقاء على الصحيح لئلا يأتكل بسراية الفساد اليه فان دعت ضرورة لقطع شئ من الصحيح لاستئصال الفاسد تعين ذلك واذا ساغ هذا فى طب الاجسام وأعاهى لولا النفوس قوالب فارغة وأنابيب مجوّفة وقوارير خالية وأحجار ملقاة ليس لها بدون النفوس حراك ولا قوام ولا نقض ولا إبرام أفلا يسوغ فى طب النفوس وهى حياة الجثمان ومدبرة الهيكل وربات البيت

فالانبياء عليهم السلام أطباء النفوس وهم أعلم بعلاجها باعلام الله ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير

وبعد

وبعد فاذا وسع الملوك شب الحروب وشن الغارات لمصلحة يرونها وبغية يقصدونها ان لم تقبل لشهوة نفسانية أو بادرة غضب أو تشوف لما فى أيدى الغير وليسوا مهبط الوحى ولا موضع الالهام ولا متنزل الروح القدس فلأن يسع الانبياء أولى وليس إطلال الدماء وازهاق النفوس وأيوم النساء ويتم الاطفال بأقل من ربقة العبودية أو وسم الاسترقاق ولقد وردت أحاديث جمة فى الامر بالزواج بقصد اكثار النسل وسيوافيك فى الكلام على التسرى وتعدد الزوجات ما فيه الكفاية فى هذا المقصد ومعلوم أن أصل العمران تابع لحفظ النوع وكثرته تابعة لكثرته ولا سبيل للحفظ والنماء الا بالازدواج فقد وضح بما ذكرنا عظم خطر النساء شرعا

(الباب الاول فى اللذة)

اللذة هى ادراك المشتهى والشهوة انبعاث النفس لنيل ما تتشوقه وكلامنا فى اللذة الدنيوية وهى أقسام ثلاثة عقلية وحسية وخيالية وأشرفها العقلية كلذة العلم والحكمة وقد حصرها الامام الرازى وغيره فى المعارف أى ما يعرف أى يدرك قال وأما ما يتوهم من لذة حسية كقضاء الشهوتين أو خيالية كحب الاستعلاء والرياسة فهو دفع الالم فلذة الاكل والشرب والجماع دفع ألم الجوع والعطش ودغدغة المنى لاوعيته ولذة الاستعلاء والرياسة دفع ألم القهر والغلبة وقال الطبيب ابن زكريا هى الخلاص من الالم وهذا القول وان صرح به جالينوس فى غير موضع من كلامه رده ابن سينا بأنه قد يلتذ بشئ بلا سابقة ألم بضده كمن وقف على مسئلة علمية أو كنز من المال فجأة من غير سبق خطورهما بالبال وألم التشوق اليهما وكما فى ادراك الذائقة الحلاوة لاول مرة وقد يحصل التبدل من أمر غير طبيعى الى أمر طبيعى من غير لذة كما فى حصول الصحة على التدريج وفى ورود المستلذات من الطعوم والروائح والاصوات وغيرها على من له غاية التشوق الى ذلك وقد عرض له شاغل عن الشعور والادراك

وبه يندفع ما قيل ان لذة العلوم من قبيل دفع آلام الجهل كما أن القول بأنها ادراك الملائم مردود بأن ذلك الادراك انما هو ملزوم لها ولان الالم الذى هو ضدها ليس هو نفس ادراك

المنافى ولاهو كاف فى حصوله لان التجارب الطبية قد شهدت بأن سوء المزاج الرطب غيره ولم مع أن هناك ادراك أمر غير طبيعى فالراجح ما قاله الامام

(البــاب الثانى فى الغيرة)

قد عرفوها بأنها ثوران غضب حمية على اكرام حرم وأكثر ما تكون فى الحرم والنساء وقد جعلها الله تعالى صيانة للانساب حتى قالوا كل أمة وضعت الغيرة فى رجالها وضعت الصيانة فى نسائها والمطلوب فيها شرعا الاعتدال وهو أن لا يتغافل عن مبادى الامور التى تخشى غوائلها ولا يبالغ فى اساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تتبع عورات النساء وفى لفظ آخر أن تبغت النساء والطريق المغنى عن الغيرة أن لا ترى الرجال الاجانب وأن لا تخرج الى الاسواق وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة عليها السلام أى شئ خير للمرأة فقالت أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل أى من الاجانب فضمها اليه وقال ذرية بعضها من بعض اذ ليست التربية وحدها مانعة من الفساد لانها لا تقوى على قلب الاعيان ولا على احالة القوى الشهوية الغريزية فى النوع الانسانى ولا على رد جماحها عند الثوران انظر تاريخ ﴿موديم﴾ تر العجب العجاب ممن بلغوا فى مجرد التربية أقصاها وفى المعارف منتهاها من أعيان الرجال والنساء كيف استعصى جموح نفوسهم الشهوية عن الانقياد لمقتضى التربية وهوى بهم الى الحضيض فيما تنزه الاسماع عن ذكره وسيوافيك فى باب تعدد الزوجات أن عدد الزناة فى فرانسا من الرجال واحد وسبعون فى المائة وعدد النساء المهجورات من أزواجهن قسوة عليهن تسعون فيها كما هو مسطور فى جرنالها الرسمى فلا بد اذن مع التربية من أسباب أخرى أقلها الاحتراس بالتحجب والنزاع فى ذلك قدح فى الحس ويرحم الله تعالى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقد قال ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن وبذا تعلم ضرورية الحجاب عقلا كما سيوافيك فى بابه وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسدون الكوى والثقب والحيطان لئلا تطلع النسوان الى الرجال ثم يباح الخروج للعفيفة باذن الزوج وينبغى أن لا تخرج الا الى مهم ولسنا نقول ان

وجه الرجل فى حقها عورة كوجه المرأة فى حقه بل هو كوجه الصبى الامرد فى حق الرجل يحرم النظر اليه عند خوف الفتنة فقط والا فلا اذ لم تزل الرجال على مر الزمان مكشوفة الوجوه

ولقد بلغت العرب فى الغيرة منتهاها وأخذت منها بالحظ الاوفر حتى أفضت بها الى الذب عن كل ضعيف ولو لم يكن من لحمة نسبها ولا من بنى أوطانها فعقدت لذلك حلف الفضول وقبله أحلافا كثيرة لا يأتيها ذو مظلمة الا أخذت له النصفة ممن ظلمه كائنا من كان وهو الذى كاد يهتف به الحسين بن على عليهما السلام فى كلام شجر بينه وبين الوليد بن عتبة بن أبى سفيان فاستكان له

وكان ذلك الحلف منصرف قريش من حرب الفجار وهو أشرف حلف فى العرب اذ قد شهده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة وفى الحديث لقد شهدت فى دار عبد الله ابن جدعان حلفا ما أحب ان لى به حمر النعم ولو دعى به فى الاسلام لاجبت أى فهو مستثنى من دعوة الجاهلية لما فيه من إغاثة الملهوف ونصرة المظلوم وكثير منهم حرم على نفسه الخمر فى الجاهلية حملته الغيرة على ذلك منهم عبد الله بن مظعون رضى الله تعالى عنه فانه قال لا أشرب شيأ يذهب عقلى ويضحك بى من هو أدنى منى ويحملنى على أن أزوج كريمتى من لا أريد ولم تشرب الخلفاء الراشدون رضى الله تعالى عنهم خمرا فى جاهلية ولا إسلام ولم تزل العرب تدعو من ولدته الفرس بالهجين لما ملكوا سيفا بالابناء وتنسب اليهم أولادهم وأولاد أولادهم فيقولون فلان الابناوى مع أن فيهم كثيرا من الائمة الاعلام كطاوس ووهب بن منبه وأضرابهما وحسبك فى هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم يوم تزويج على فاطمة رضى الله تعالى عنهما جدع الحلال أنف الغيرة

(الباب الثالث فى الوأد)

قد عرفت فى الغيرة شيأ من عزة العرب وشرف نفوسهم وشدة أنفتهم فى حفظ الذمار وإجارة الجار فاعرف الآن أنهم فيما يختص بالحرم أمنع وآنف فلقد كانوا لا يكادون ينطقون باسم المرأة الكريمة من العقائل وتارة يكنون عنها بفعلة أو فعالة عرف ذلك فى أشعارهم

وتفعمته سرهم قال عوف بن مالك

تعرض ضيطارو فعالة دوننا * وما خير ضيطار يقلب مسطما

يريد خزاعة وقال الحكمي أبو نواس

فهي اذا أنعتت فقد عرفت * فيجمع الاسم معنيين لها

وأخذه المتنبي فقال في أخت سيف الدولة

أجل قدرك أن تسمى مؤنثة * ومن يصفك فقد سماك للعرب

كأن فعلة لم تملا مواكبها * ديار بكر ولم تخلع ولم تهب

وكان لسهل بن عمرو ولد ضفاقة أى أحمق فقال له انسان أين أمك أى قصدك فحسبه يقول أمك فقال ذهبت تشترى دقيقا فقال أبوه أساء سمعا فأساء جابة وأرسلها مثلا وذلك لمجرد كناية الام ولما قال الاخطل في هجاء جرير

قوم اذا استنبح الاضياف كلبهم * قالوا لامهم بولى على النار

فتمسك البول خوفا أن تجود به * وما تبول لهم الا بمقدار

والخبز كالعنبر الوردى عندهم * والقمح سبعون إردبا بدينار

يصفهم بالبخل مع شدة ثروتهم توجع جرير من البيت الاول وقال جمع فيه ضروبا من الهجاء والشتم منها البخل الفاحش ومنها عقوق الام في ابتذالها دون غيرها ومنها تقذير الفناء ومنها السوأة التى ذكرها من الوالدة ومع هذا فلم يكن حظهم منهن سوى الاذكار والانجاب لا مجرد قضاء الشهوة حتى لقد كانوا يهجرون مضاجعهن اذا دهمتهم شدة ويتركون الخمر انظر الى قول الملك الضليل لما أتاه نعي أبيه اليوم خمر وغدا أمر والى قول الآخر بعد الظفر

فساغ لى الشراب وكنت قبلا * أكاد أغص بالماء الحميم

وقول غيره

قوم اذا حاربوا شدوا مآزرهم * عن النساء ولو باتت بأطهار

وقال أبو الفوارس العبسي

كذب العتيق وماء شن باردا * ان كنت سائلتى غبوقا فاذهبي

(وقبله)

وقبله

لا تذكري فرسي وما أطعمته * فيكونَ جلدُكِ مثلَ جلد الاجرب

العتيق اسم للتمر عَلَم يقول عليك بالتمر فكليه وبالماء البارد فاشربيه ودعيني أوثر فرسي باللبن ولا تتعرضي له فاهجر فراشك وأتحاماك كما يُتحامى الاجرب وتفصيل الكلام على ذلك في المواهب

فاذا أرادوا منهن ذلك الامر أغضبوهن ليغلب خُلق الاذكار من جانب الابوة قال أبو كبير في تأبط شرا

حَمَلَتْ به في ليلة مزؤودةٍ * كُرها وعَقْدُ نطاقها لم يُحلل

ويقولون اذا حَملت وهي مزؤودة أي مذعورة فاذكرت جاءت به لا يطاق وقال الآخر

تسمّنتها غضبى فجاء مُسهّدا * وأنفع أولاد الرجال المسهد

أي قليل النوم خصوصا اذا كان الحمل ليلا وهذا سر قوله في ليلة لانه يكون أنجب حتى لقد دعاهم ذلك الى أن وصلوا أنسابهم بالليل قال شاعرهم

أنا ابن عم الليل وابن خاله * اذا دجا دخلت في سرباله

لست كمن يفرق من خياله

واذا أنكروا من للغلام خُلقا تستروا عليه أو نسبوه الى أمه حتى ضربوا بذلك المثل قال ابن الحكم معاتبا لابن عمه آخر قصيدة طويلة

جمعتَ وفحشا غيبة ونميمةً * ثلاثَ خصال لستَ عنها بمرعوى

بدا منك غش طالما قد كتمته * كما كتمت داء ابنها أمُّ مُدّوى

أتدري ما ذلك الداء ومن هي أم مدّوى هي امرأة يضرب بها المثل لمن يورّي بالشئ عن غيره وأصله أن امرأة من العرب خطبت على ابنها جارية فجاءت أمها لتنظر اليه فدخل فقال لامه أدّوى فقالت له اللجام معلق بعمود البيت في السرج بجانبه فأظهرت ان ابنها أراد إداوة الفرس للركوب لتكتم زلته عن أم الجارية

والقوم أسلم خلق الله تعالى أذواقا وأطيبهم أعراقا نخيم كريم وعرق سليم منافيان أن تكون الشهوتان أو احداهما مطمح أنظارهم على خط مستقيم

وانظر الى استعداء الزبرقان على الحطيئة عند أمير المؤمنين الخليفة الثانى رضى الله تعالى عنهم لقوله فيه

دع المكارم لا ترحل لبغيتها * واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

لان الغلام انما أراد أكل الدواية وهى القشرة التى تعلو اللبن والمرق فهذا الذى سماه الشاعر داء ولاعشى باهلة فى رثاء أخيه المنتشر

لا يتأرّى لما فى القدر يرقبه * ولا يعض على شرسوفه الصفر

أى لا ينتظر نضج الطعام ولا يعض الجوع طرف ضلعه وقال أوس بن حجر من قصيدة

فانا رأينا العرض أحوج ساعة * الى الصون من ريط يمان مسهم

أى من الثياب النفيسة المخططة الموشاة المزينة ولابى خراش فى ولده خراش

ولم يك مثلوج الفؤاد مهبجا * أضاع الشباب فى الربيلة والخفض

أى ليس بارد القلب ثقيل النفس يركن للسمن والنعيم ولحاتم أو عروة بن الورد

لحى الله صعلوكا مناه وهمه * من العيش أن يلقى لبوسا ومطعما

ولأبى محجن رضى الله تعالى عنه

لا تسألى الناس عن مالى وكثرته * وسائلى الناس عن دينى وعن خلقى

وكانوا يتمدحون بمجادة الغلام وسيادته فى حداثة سنه قالت الخنساء فى صخر

طويل النجاد رفيع العما * د ساد عشيرته أمردا

وللفرزدق فى يزيد بن المهلب

مازال مذ عقدت يداه إزاره * فسما فأدرك خمسة الاشبار

يدنى خوافق من خوافق تلتقى * فى ظل معتبط الغبار مثار

أى لم يزل مذ قدر على عقد ازاره بيده أميرا يقود الجيوش ويقاتل فى الامكنة التى لم يقاتل فيها أحد قبله ولا أثار لها غبارا حتى أثاره هو وأنت تعلم ان لا سبيل لتلك المجادة فى حداثة السن سوى حسن التربية على علو الهمة وقال الآخر معترفا أن امرأته غلبته على شبهه فنزعت الولد الى أخواله

والله ما أشبهنى عصام * لا خلق منه ولا كلام * نعت وعرق الخال لا ينام

ومن

ومن كلام لأم تأبط شرا والله ما حملته تضعا ولا وضعته يتنا ولا سقيته غيلا ولا أبته مئقا
فالتضع عند اقبال الحيض واليتن خروج رجلي المولود قبل رأسه والغيل أن ترضع
وهي حبلى أو وهي تغشى والمئق المغتاظ لان الحرقا من النساء تبيت ولدها جائعا مغموما
مع حاجته للرضاع فتحركه في مهده حتى يغلبه الدوار والكيسة تشبعه وتغنيه في مهده
فيسري ذلك الفرح في بدنه ويعمل في طباعه ولا يكون نومه على فزع أو غيظ أو غم فان
ذلك مما يعمل في الفساد قاله المبرد والجاحظ

ولقد كانت الجاهلية لا يورثون البنات ولا الموالي ولا الغلمان حتى يدركوا ويطيقوا القتال
ويرون الهجنة عارا والاقراف شنارا حتى لا يلحقوا ابن الامة بانسابهم

ولما لم يوجد في بنات الملوك سوى بنت النعمن الصفات المطلوبة لكسرى أبي النعمن
مصاهرته وضن عليه بكريمته أنفة وحمية وترتب على ذلك قتله خديعة وشبت للانا ربه
وقعة ذي قار التي كان يومها أول يوم انتصف فيه العرب من العجم وهي التي يقول فيها
حبيب أبو تمام يمدح العجلي أبا دلف

اذا افتخرت يوما تميم بقوسها * وأربت بما قد أحرزت من مناقب
فأنتم بذي قار أمالت سيوفكم * عروش الذين استرهنوا قوس حاجب

وكان عقيل بن علفة على ضيقته وشدة عيشه بالبادية لا يرى أن له كفوا وكانت قريش
ترغب في مصاهرته وتزوجه من حلقائها وأشرافها ومع ذلك لا يخنع لمصاهرة أحد حتى
خطب اليه عبد الملك بن مروان بعض بناته لبعض ولده فأطرق ساعة ثم قال ان كان ولا بد
فجنبني هجناءك ففضله الخليفة وعجب من كبر نفسه على سوء حالته ولقد بلغ من جفائه أن
قال لعمر بن عبد العزيز لما أنبه على جفائه وأنه لا يقرأ القرآن الكريم بلى اني لأقرأ ثم قرأ انا
بعثنا نوحا الى قومه فقال له عمر ألم أقل انك لا تقرأ فقال ألم أقرأ فقال ان الله تعالى قال انا
أرسلنا نوحا فقال عقيل

خذوا بطن هرشى أو قفاها فانه * كلا جانبي هرشى لهن طريق

فعدلت الشريعة المطهرة ذلك في جملة ما عدلته من أخلاقهم فقد كانوا يكرهون البنات

هرشى موضع له طريقان يوصل اليه من أيهما اه مؤلفه

قال تعالى واذا بشر أحدهم بالاتى ظل وجهه مسودا وهو كظيم وكان بعضهم يئدهن فنهى الله تعالى عن ذلك

وقد بسطنا هذا الكلام فى المواهب وأرجعنا ثمة الخلاف بين من تمسك بظاهر الآية الكريمة على أن سببه خشية الفقر وبين من يقول الانفة والحمية الى الخلاف اللفظى بما حاصله أنه لا يبعد أن تكون خشية الفقر انما هى لما يترتب عليه من الانتهاك لان العفة حجاب تمزقه الحاجة بدليل عدم وأد الذكور لان خشية الاملاق وحدها توجب قتل الجميع كما هو حاصل فى أوروبا انظر رحلة فارس افندى محرر الجوائب

وليس من سبب لحرب الفجار الثانى سوى العامرية التى رام بعض سفهاء الفتيان كشف وجهها لما بهرهم من حسنها فأبت فاحتال حتى كشفها بخدعة فنادت يا آل عامر ونادى الفتى يا بنى كنانة فثارا الحيان واستعرت بينهما حرب عوان

ولا بدع فى ذلك لافراطهم فى الغيرة فلقد كانت مثل هذه الفعلة الجبرية لا تزال ملصقة بالقبيلة مخلدة العار فيها ألم تر أن ذينك الأسدى والهذلى لما تفاخرا واشتد تلاحيهما حكما رجلا فقال لا أقضى بينكما حتى تجعلا لى عقدا وثيقا ان لا تشتما ولا تضربا فانى لست فى بلاد قومى ففعلا فالتفت للأسدى وقال يا أخا بنى أسد كيف تفاخر العرب وأنت تعلم أنه ليس حى أحب الى الجيش ولا أبغض الى الضيف ولا أقل تحت الرايات منكم

وأما أنت يا أخا هذيل فكيف تكلم الناس وفيكم خلال ثلاث كان منكم دليل الحبشة على الكعبة ومنكم خولة ذات النحيين وسألتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحل لكم الزنا ولكن اذا أردتما بيتى مضر فعليكما بهذين الحيين من تميم وقيس قوما فى غير حفظ الله ودليل الحبشة هو أبو رغال الذى يرجم قبره بالخمس وكان دليل أبرهة الى مكة المكرمة وفيه يقول جرير اذا مات الفرزدق فارجموه * كما ترمون قبر أبى رغال

فبعث الله تعالى الطير الابابيل كما فى القرآن الكريم فأصيب جيش أبرهة وكان آثار الاحجار قروحا قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما انها الجدرى أول ما ظهر

قلت قد اعترف بذلك علماء اوروبا فقد ذكر المؤرخ بروكوبيوس اليونانى ان مرض

الجدرى

الجدرى ظهر اوّلا سنة ٥٤٤ ميلادية فى مدينة بلوسيوم قرب دمياط وانتقل منها
الى القسطنطينية سنة ٥٦٩ قال وفى تلك السنة تقسم احاصر أبرهة الاشرم الحبشى
المشهور بصاحب الفيل مكة فاصيب جيشه بمرض معد اضطره الى رفع الحصار عنها وتضح
من بعض الكتب التى وجدها السائح بروس فى بلاد الحبشة أن هذا المرض كان الجدرى
ومن ثم كثر وجوده فى الشرق انتهى

وذات النحيين هى صاحبة خوّات فى الجاهلية شغلها بامسا كها نحيى سمن بكلتا يديها
فضرب بها المثل قالوا أشغل من ذات النحيين وقال سيدنا حسان رضى الله تعالى عنه
فى هذيل سالت هذيل رسول الله فاحشة * ضلت هذيل بما سالت ولم تصب
وانه ليعجبنى فى هذا المقام قول بعض أعنتنا وددت لو أن لنا مع إسلامنا كرم أخلاق آبائنا
فى الجاهلية ألا ترى عنترة وهو جاهلى لا دين له وأبا نواس إسلامى له دين وقد منع عنترة
من كرمه ما لم يمنع أبا نواس من دينه فقال عنترة

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى * حتى يوارى جارتى مأواها
إنى امرؤ سمح الخليقة ماجد * لا أتبع النفس اللجوج هواها

وقال الحسن بن هانئ مع اسلامه

كان الشباب مطية الجهل * ومحسن الضحكات والهزل
والباعثى والناس قد رقدوا * حتى أتيت حليلة البعل

انتهى قلت وقال جاهلى آخر

ولا أطرق الجارات بالليل قابعا * قبوع القرنبى أسلمته محاجره

ولمسكين الدارمى من قصيدة

لا آخذ الصبيان ألثمهم * والامر قد يعزى به الامر
نارى ونار الجار واحدة * واليه قبلى تنزل القدر
ما ضر جارى ان أجاوره * أن لا يكون لبيته ستر
أعمى اذا ما جارتى خرجت * حتى يوارى جارتى الخدر
ويصم عما كان بينهما * سمعى وما بى غيره وقر

ومثل قوله لا آخذ الصبيان الخ قول الآخر

ولا ألقى لذى الودعات سوطى * ألاعبه وريبته أريد

وقول آخر وقد أقوى فيه

اذا رأيت صبي القوم يلثمه * ضخم المناكب لا عم ولا خال

فاحفظ صبيك منه أن يدنسه * ولا يغرنك يوما قلة المال

وقال آخر

ويحرم سر جارتهم عليهم * ويأكل جارهم أنف القصاع

أى التى لم يؤكل منها شئ ومنه روضة أنف وكأس أنف أى لم ترع ولم يشرب منها شئ

ولتماضر فى أخيها صخر أثناء قصيدة مطلعها

يا صخر وراد ماء قد تناذره * أهل المياه وما فى ورده عار

تقول فيها

وان صخرا لمولانا وسيدنا * وان صخرا اذا نشتو لنحار

وان صخرا لتأتم الهداة به * كأنه علم فى رأسه نار

لم تره جارة يمشى بساحتها * لريبة حين يخلى بيته الجار

ولأعشى باهلة الجاهلى يرثى المنتشر أخاه لأمه من القصيدة السابق بعضها

لا يهتك الستر عن أنثى يطالعها * ولا يشد الى جاراته النظر

وقبله

لا يصعب الامر الا ريث يركبه * وكل أمر سوى الفحشاء يأتمر

ولولا خوف السآمة لأفعمنا الوطاب فى هذا الباب من هذا اللباب بشواهد عربية هى فى هذا المعنى أحسن من حسن الغانيات . وانظر الى قول شاعرهم وهو معنى بديع فى بابه

قبيح بمثلى نعت الفتاة * فاما ابتهارا واما ابتيارا

الابتهار أن يقول فعلت ولم يفعل والابتيار أن يقول فعلت وقد فعل وفى الحديث الابتهار بالذنب أعظم من ركوبه

ولقد

ولقد بلغ من عناية العرب بهن أن شعراءهم يرون أن مدائحهم لا تحوز القبول ولا تحظى بالصلات ولا يصاخ لها بالاسماع الا اذا صدرت بالنسيب واستهلت بالغزل وافتتحت بأنواع التشبيب وليس لذلك من سبب سوى علمهم بأن ميل الرجال اليهن أمر غريزى فى النفوس امتزج بالقلوب واقتضته الخليقة والتصق بالاحشاء فيكون ذكر محاسنهن فى الامادح داعية الى سماع القصيد بتمامه والاصغاء اليه والركون لما تضمنه اذ لم يكونوا يعرفون الميل الى الذكران ولا كان يخطر لهم ببال تعرف ذلك من تتبع سيرهم والتنقيب عن أخلاقهم والبحث فى عاداتهم وفحص كلامهم نثره وشعره وخطبه ومحاوراته وغير ذلك من بقية ضروبه فلا تشم منها هذه الرائحة هذا مع ولوعهم بالنسيب وعنايتهم بالتشبيب واستحكام العشق فى فطرهم السليمة الى الحد المعروف فى العذريين كل ذلك مع غاية العفاف وفرط الصيانة وشدة الاحترام وحفظ آداب الكمال من الفريقين فقد كانت نساؤهم يفتخرن بالعفاف كما تفتخر به الرجال

انظر مبايعة هند أم معوية لما تلا عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم آية المبايعة يا أيها النبى اذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيأ ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن الآية الكريمة قالت سبحان الله أو تزنى الحرة كما فى صحيح البخارى وقالت الخنساء

وخيل تكدس بالدارعين * تحت العجاجة يجمزن جمزا
ببيض الصفاح وسمر الرماح * فبالبيض ضربا وبالسمر وخزا
جززنا نواصى فرسانها * وكانوا يظنون أن لا تجزا
ومن ظن ممن يلاقى الحروب * بأن لا يصاب فقد ظن عجزا
نعف ونعرف حق القرى * ونتخذ الحمد ذخرا وكنزا

وانما سرى لبعضهم ذلك الامر من مخالطة الغير وطول الاغتراب باتساع الفتوحات وتأمل قول المأمون العباسى لولا ذكره فى كتاب الله تعالى ما ظننت وقوعه من آدمى وما اتفق لسعيد بن عبد الرحمن بن ثابت فى وفادته وهو صبى وضىء على هشام فسلمه الى معلم الوليد وهو عبد الصمد بن عبد الاعلى فطمع فيه فدخل سعيد على هشام وأنشد

انه والله لولا أنت لم * يَنجُ مِنّي سالماً عبد الصمد

فقال ولم فقال

إنه قد رام مني خطة * لم يرمها قبله مني أحد

قال ويحك ماهي فقال

رام جهلاً بي وجهلاً بأبي * يولج العصفور في خيس الاسد

ترى العجب الذي يروق النفوس وتعلم أن مثل هذه الابناء من زينة الحياة الدنيا والله تعالى يهدي من يشاء

الباب الرابع

في أن الزواج لمجرد قضاء الشهوة خروج عن طور الانسانية ولا يثاب عليه شرعا

قد علمت في الباب السابق من الوأد ما كان من خلق الجاهلية في الزواج وان مقصدهم منه انما هو مجرد الاذكار والانجاب

فاعلم الآن أن المطلوب في الشريعة المطهرة في الزواج هو قصد تكثير النسل حتى نصوا على أنه لا يثاب اذا قصد مجرد الشهوة أما قصد الحذر من وضعها في محرم فليس من قصد الشهوة المجردة وقد قال عمر رضي الله تعالى عنه اني لأتزوج النساء ومالي اليهن حاجة وآتيهن ومالي اليهن شهوة قيل له ولم ذلك يا أمير المؤمنين قال رجاء أن يخرج الله من ظهري من يكاثر به محمد صلى الله عليه وسلم الامم يوم القيامة وقالت عائشة رضي الله تعالى عنها لما سُئلت عن قبلة الصائم وأيكم أملك لأربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أي ان ذلك لم يكن منه الا للتشريع لا لاحوال البشرية وكان ابن مسعود رضي الله تعالى عنهما يقول لو لم يكن من عمري الا عشرة أيام لأحببت أن أتزوج لكي لا ألقى الله عزبا

ولما ماتت امرأتا معاذ في الطاعون وكان هو أيضا مطعونا قال زوجوني فاني أكره أن ألقى الله عزبا وقد ورد في مذمة المرأة العقيم كثير من الاحاديث منها الحصير في ناحية البيت خير من امرأة لا تلد فالولد هو المقصود بالفطرة والحكمة والشهوة باعثة عليه وهو الاصل الموضوع له الزواج

والمقصود

والمقصود ابقاء التناسل وأن لا يخلو العالم عن جنس الانس وانما خلقت الشهوة باعثة مستحثة كالموكل بالفحل فى اخراج البذر وبالانثى فى التمكين من الحرث تلطفا بهما فى السياقة الى اقتناص النسل كالتلطف بالطير فى بث الحب الذى يشتهيه ليساق الى الشبكة وكانت القدرة الازلية غير قاصرة عن اختراع الاشخاص ابتداء من غير حراثة وازدواج ولكن الحكمة اقتضت ترتيب المسببات على الاسباب مع الاستغناء عنها اظهارا للقدرة وإتماما لعجائب الصنعة وتحقيقا لما سبقت به المشيئة وحقت به الكلمة وجرى به القلم

وفى التوصل الى الولد قربة من أربعة أوجه هى الاصل فى الترغيب فيه عند الامن من غوائل الشهوة حتى لم يحب أحدهم أن يلقى الله عزبا الاول موافقة محبة الله تعالى بالسعى فى تحصيل الولد ابقاء لجنس الانسان الثانى طلب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تكثير من به مباهاته الثالث طلب التبرك بدعاء الولد الصالح بعده الرابع طلب الشفاعة بموت الولد الصغير اذا مات قبله

أما الوجه الاول فهو أدق الوجوه وأبعدها عن فهم الجماهير وهو أحقها وأقواها عند ذوى البصائر النافذة فى عجائب صنع الله تعالى ومجارى حكمه

وبيانه أن السيد اذا سلم لعبده البذر وآلات الحرث وهيأ له أرضا مهيأة للحراثة وكان العبد قادرا على الحراثة ووكل به من يتقاضاه عليها فان تكاسل وعطل آلات الحرث وترك البذر ضائعا حتى فسد ودفع الموكل عن نفسه بنوع من الحيلة كان مستحقا للمقت والعتاب من سيده

والله عز شأنه خلق الزوجين الذكر والانثى وخلق النطفة وهيأ لها فى الانثيين عروقا ومجارى وخلق الرحم قرارا ومستودعا للنطفة وسلط متقاضى الشهوة على كل واحد من الذكر والانثى فهذه الافعال والآلات تشهد بلسان ذلق فى الاعراب عن مراد خالقها وتنادى أرباب الالباب بتعريف ما أعدت له هذا على فرض أن لم يصرح به الخالق سبحانه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فكيف وقد صرح بالامر وباح بالسر

فكل ممتنع عنه معرض عن الحراثة مضيع للبذر معطل لما خلق الله تعالى من الآلات المعدة

وجار على مقصود الفطرة والحكمة المفهومة من شواهد الخلقة المكتوبة على هذه الاعضاء بخط إلهي ليس برقم حروف وأصوات يقرؤه كل من له بصيرة ربانية نافذة في ادراك دقائق الحكمة الازلية ولذلك عظّم الشارع الامر في قتل الاولاد وفي الوأد لانه منع لتمام الوجود واليه أشار من قال العزل أحد الوأدين

ولاجل محبة الله تعالى في بقاء النفوس أمر بالاطعام وحث عليه وعبّر عنه بالقرض فقال سبحانه من ذا الذي يُقرض الله قرضاً حسناً فالمحجم عن الزواج مضيع نسلاً أدام الله وجوده من آدم صلى الله عليه وسلم عقباً بعد عقب الى أن انتهى اليه فالممتنع من ذلك قد حسم الوجود المستدام من لدن وجود آدم على نفسه فمات أبتر لا عقب له ولو كان الباعث على الزواج مجرد دفع الشهوة لما قال معاذ في الطاعون زوجوني لا ألقى الله عزبا وهو وان لم يتوقع ولدا في ذلك الوقت غير أن في اختياره احضار باعث الشهوة وان خرجت هي من الاختيار فمن عقد فقد أدّى ما عليه وفعل ما اليه والباقي خارج عن اختياره

ولذا يستحب الزواج للعنّين لأن نهضات الشهوة خفية لا يطلع عليها حتى ان الممسوح الذي لا يتوقع له ولد لا ينقطع الاستحباب أيضا في حقه على الوجه الذي يستحب به للاصلع امرار الموسى على رأسه اقتداء بغيره وتشبها بالسلف الصالح وكما يستحب الرمل والاضطباع في الحج الآن وقد كان المراد منه اظهار الجلد فصار الاقتداء والتشبه بالذين أظهروا الجلد سنة في حق من بعدهم

ويضعف هذا الاستحباب بالاضافة الى الاستحباب في حق القادر على الحرث وربما يزداد ضعفا بما يقابله من كراهة تعطيل المرأة وتضييعها فيما يرجع الى قضاء الوطر فان ذلك لا يخلو من نوع من الخطر فسببية النسل أقوى وآكد لانها عامة الا الممسوح وهو نادر

الباب الخامس

في نبذة من شرح قوله صلى الله عليه وسلم حبب الىّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة

اتما لم يذكر الفاعل تعظيما له أو لتطهيره عن اللسان كما قيل

وإيابك واسمَ العامرية إنني * أغارُ عليها من فَمِ المتكلِّمِ

أو لكونه معلوما لكل أحد وإنما خص عدد الثلاث لان العدد الفرد أشرف وأسبق وكل زوج محتاج اليه كما بين في محله وهو غني عن سواه ولذا كان الله وترا يحب الوتر والواحد ليس بعدد فلذا كان أول عدد وتر هو الثلاث

والعوالم ثلاثة عالم الملك وعالم الملكوت وعالم الجبروت فالاول عالم الاجسام والثاني عالم الارواح والثالث عالم الربوبية

فالنساء من عالم الملك والطيب من عالم الملكوت والصلاة من عالم الجبروت وخصت هذه بالذكر لانها وان كانت دنيوية فهي معينة على الامور الاخروية

أما النساء فلان بالسكون اليهن قطع العلائق الدنيوية وموت الشهوة العائقة عن الاستغراق في محبة الله تعالى ولذا أكد الزواج حتى قال صلى الله عليه وسلم انه سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني ولانهن من نعيم الجنان

وأما الطيب فلانه يقوي القلب والروح ويلطف السر ويعين على ادراك المغيبات والالهام وأما الصلاة فعماد الدين ومعراج المؤمنين فالامور الثلاثة دنيوية ظاهرا أخروية باطنا ولما كان صلى الله عليه وسلم ظاهره في الدنيا وباطنه في الآخرة كان محبوبه كذلك مناسبا له

وقدمت النساء لانهم أمهات وأصول التكوين فرتبتهن التقديم وقال من دنياكم فأضافها لغيره اشارة الى أنه فيها كالغريب المسافر

والثالث هو الصلاة فليس بمحذوف كما توهم وانما عدل عن الظاهر تعظيما لشأنها واشارة الى انها ليست من جنس ما قبلها حتى تدرج معه في جملة واحدة فاستأنف لها جملة مستقلة وجعلها ظرفا للقرة والسرور ليدل على شرفها وأنها الموصلة الى الحق فان كمالها أن يشاهد العبد فيها ربه كما قال الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه وقال في الصلاة ولم يقل بالصلاة إلغاء للاعمال لانه لا يدخل الجنة أحد بعمله بل بفضل الله تعالى وقال عيني بالافراد وان كان بمعنى المثنى لانه بقوة التجلي صارت عيناه عينا واحدة وهي عين البقاء

وقرة العين قيل انها كناية عن المشاهدة وعدل اليها عن التصريح سترا عن الاغيار
وقوله جعلت بالمجهول اشارة الى أن ذلك موهبة لادخل للمكسب فيها
ولم يعين صلاة من الفرض أو النفل لعموم ذلك فيها فكان صلى الله عليه وسلم بشرى الظاهر ملكى الباطن لا يفعل شيأ من أحوال البشرية الا تأنيسا لأمته وتشريعا لها لا أنه محتاج الى شئ من ذلك حتى المأكل والمشرب فقد صح أنه قال لما نهى عن الوصال فقيل إنك تواصل إنى أبيت عند ربى يطعمنى و يسقين
والفناء عن البشرية مشاهد فى بعض خواص أمته فقد ثبت أن عروة بن الزبير لما أصابت رجله الاكلة وأرادوا قطع قدمها لئلا يسرى الداء الى جميع البدن وكان يأبى عليهم قالت لهم زوجته إنكم لا تقدرون على ذلك الا اذا كان فى الصلاة فقطعوها وهو يصلى فلما فرغ قال أتريدون أن تقطعوها فأروه اياها فقال والله ما شعرت بكم
ولما انهدت اسطوانة المسجد وعلى عليه السلام فى الصلاة انزعج الناس وكثرت الغوغاء وهم عوام الاسواق ينظرون ما حدث وهو مع ذلك كله فى الصلاة لا يشعر بشئ وهذا باب واسع وفى هذا القدر كفاية

(الباب السادس)

فيما يختص برعايتهن من رفق ووصاة وتربية وتعليم واحتمال دالة وغير ذلك من أمور كثيرة ترجع للعناية بهن والحنان اليهن والشفقة عليهن

قال الله تعالى ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وقال تعالى فامساك بمعروف أو تسريح باحسان وقال تعالى فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة وقال تعالى فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيأ ويجعل الله فيه خيرا كثيرا
وقد نص أئمتنا على أنه لو حلف على يمين يتضرر أهله منها أنه ينبغى له الحنث والكفارة كما ورد فى صحيح مسلم وأنه لا يحل له الزامها بخدمته بل يجب عليه تحصيل جميع ما يلزمها من أعمال المنزل بحيث لا تكلف بطبخ او عجن أو غيرهما بل هو المكلف بكفايتها جميع المؤن

وليس يجب له عليها شئ البتة سوى التمكين ولزوم بيته فلا تخرج الا باذنه والآيات
والاحاديث فى رعايتهن جمة أكثر مما ذكرنا

ولقد كان خيار الامة لا يزوجون كرائمهم الا بعد النظر احترازا من الغرور قال الاعمش كل
تزويج يقع على غير نظر فآخره هم وغم وتزوج رجل فى عهد عمر رضى الله تعالى عنه وكان
قد خضب فنصل خضابه فاستعدى عليه أهل المرأة أمير المؤمنين وقالوا حسبناه شابا
فأوجعه ضربا وقال غررت القوم

وأتى بلال وصهيب أهل بيت من العرب فخطبا اليهم فقيل لهما من أنتما فقال بلال أنا بلال
وهذا أخى صهيب كنا ضالين فهدانا الله وكنا مملوكين فأعتقنا الله وكنا عائلين فأغنانا الله فان
تزوجونا فالحمد لله وان تردونا فسبحان الله قالوا بل تزوجان والحمد لله فقال صهيب لبلال
لو ذكرت مشاهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اسكت فقد صدقت
فزوجك الصدق

وقد حض الشارع على ترجيح ذات الدين على ذات الجمال والحسب والمال فاذا اجتمعت
الصفات كان حسنا وعلى تقليل المهر فلا تستاء الفقيرة من الغنية ولا الشوهاء من
الحسناء متى كانت الحلية الدين

وعلى الاغتراب أى أن لا تكون الزوجة من القرابة لئلا يخلق الولد ضاويا أى نحيفا وذلك
لتأثيره فى تضعيف الشهوة فانها انما تنبعث بقوة الاحساس بالنظر واللمس وانما يقوى
الاحساس بالامر الغريب الجديد فأما المعهود الذى دام النظر اليه مدة فانه يضعف
الحس عن تمام ادراكه والتأثر به ولا تنبعث به الشهوة هكذا نص عليه الغزالى وغيره وورد
به الحديث الشريف اغتربوا ولا تضووا أى تزوجوا فى الاجنبيات ولا تتزوجوا فى العمومة
هكذا فسروه ولا يرد تزويج فاطمة من على عليهما السلام لأن ذلك لسر الهى صرح به
حديث ان الله جعل ذرية كل نبى فى صلبه وجعل ذريتى فى صلب على

ويجب على ولى المرأة أن يراعى خصال الزوج وينظر مصلحة كريمته فلا يزوجها ممن ساء
خلقه أو خلقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لا يكافئها فى نسبها ففى
الحديث الشريف لينظر أحدكم أين يضع كريمته والاحتياط فى حقها أهم وقال الحسن

البصري لمن استشاره ممن يزوج ابنته زوجها ممن يتقي الله فانه ان أحبها أكرمها وان أبغضها لم يظلمها

وعلى حسن الخلق معهن واحتمال الاذى منهن قال تعالى وعاشروهن بالمعروف وقال في تعظيم حقوقهن وأخذن منكم ميثاقا غليظا وقال تعالى والصاحب بالجنب قيل هي المرأة وآخر ما وصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى جعل يقول الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون الله الله في النساء الحديث الشريف واعلم أنه ليس حسن الخلق مع المرأة كف الاذى عنها فقط بل احتمال الاذى منها والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فقد كانت أزواجه يراجعنه الكلام وجرى بينه وبين عائشة كلام حتى أدخلا أبا بكر حكماً فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلمين أو أتكلم فقالت بل تكلم أنت ولا تقل الا حقا فلطمها أبو بكر حتى دمي فوها وقال أي عدية نفسها أو يقول غير الحق فاستجارت برسول الله صلى الله عليه وسلم وقعدت خلف ظهره فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ندعك لهذا ولا أردنا منك هذا وكان يقول لها اني لأعرف غضبك من رضاك قالت وكيف تعرف ذلك قال اذا رضيت قلت لا واله محمد واذا غضبت قلت لا واله ابراهيم قالت صدقت انما أهجر اسمك

وكان يقول لنسائه لا تؤذينني في عائشة فانه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها وقال أنس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بالنساء والصبيان وعلى أن يزيد على احتمال الاذى المداعبة والمزح والملاعبة وينزل الى درجات عقولهن في الاعمال والاخلاق حتى روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسابق عائشة بالعدو فسبقته يوما وسبقها في بعض الايام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه بتلك

وكان صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع نسائه قالت عائشة سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أتحبين أن ترى لعبهم قالت قلت نعم فأرسل اليهم فجاؤا وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين البابين ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم

يقول حسبك فقلت نعم فأشار اليهم فانصرفوا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله وخيركم خيركم لنسائه وأنا خيركم لنسائى وليست رحمته صلى الله عليه وسلم مختصة بعائشة دون بقية نسائه بل ولا بهن دون بقية الناس بل ولا بالناس دون البهائم لان الله تعالى سماه رؤفا رحيما يعرف ذلك من تتبع سيرته الكريمة وأخلاقه الرحيمة حتى لقد عدها الشريف الجرجانى فى شرح المواقف مغنية عن المعجزات لوفرض عدم وقوعها وكذا غير الشريف من علمائنا رحمهم الله تعالى حتى قال بعض شعرائه صلى الله عليه وسلم

لو لم تكن فيه آيات مبينة * كانت خلائقه تنبيك بالخبر

ثم ان لعائشة رضى الله تعالى عنها من بين نسائه منزلة قصوى كفانا صلى الله عليه وسلم مؤنة حكمتها بقوله انه لا يأتينى الوحى فى فراش امرأة سواها مع أن ورقة لما أشار على خديجة بكشف رأسها حين الوحى ليعلم ورقة حقيقته اختفى جبريل عليه السلام عند ذلك فأيقن ورقة أنه الناموس الذى أنزل على موسى قال صاحب الهمزية

فاختفى عند كشفها الرأس جبريـ * ـل فما عاد أو أعيد الغطاء

وانها ابنة أبى بكر وهو رجل الامة وشيخ الاسلام وأفضل الصحب وفيه قال صلى الله عليه وسلم ما فضلكم أبو بكر بصلاة ولا بصوم انما فضلكم بشئ وقر فى صدره و بعد فلله تعالى أن يختص برحمته من يشاء كما اختص مريم وآسية

هذا وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه مع صلابته فى الدين ينبغى للرجل أن يكون فى أهله مثل الصبى فاذا التمسوا ما عنده وجد رجلا

وعلى الاعتدال فى الغيرة كما سبق فى بابها ومتى طرق أذنيك ما أثبتناه فى تحتم حفظ الانساب وأنه كاد أن يكون وحده الفارق بين البهيم والآدمى فلا يهولنك ما سمعت فى الغيرة ولله من مدح أباه بين يدى معوية وزياد بالحضرة فقال لمزياد تمدح أباك بين يدى أمير المؤمنين فسكت فقال له معوية لم تجبه فقال يا أمير المؤمنين انه معذور اذ لم يذق حلاوة الآباء

وعلى أن يتلطف فى تأديبها اذا نشزت بأن يقدم الوعظ والتحذير والتخويف فان لم ينجع

ولاهاظهره فى المضجع أوانفرد عنها بالفراش وهجرها وهو فى البيت معها من ليلة الى ثلاث ونحو ذلك

وعلى أن لا يكون معهما أحد عند الاجتماع اذلك الغرض وقد كان عبد الله بن عمر يخرج الرضيع من البيت حتى قالوا يضرح الهز اذذاك من البيت

ولما كان قصد الشارع صلى الله عليه وسلم دوام الالفة والمحبة بين الزوجين استحب أن يكون ذلك الامر أول الليل قالوا لان آخر الليل يكون عقب نوم وقد يتعلق بالفم والانف شئ يغير رائحتهما من بخار المعدة فاذا شم أحدهما ذلك كان سببا للكراهة

ألا ترى نهيه صلى الله عليه وسلم عن أن يأتى الرجل أهله طروقا ليلا اذا قدم من سفر لئلا يدخل عليهن قبل أن يتأهبن للقائه بأن تمتشط الشعثة وتدهن وتطيب فيكون ذلك أدعى الى بقاء العصمة والمودة

وقد كان صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه وذلك لفوائد منها البداءة ببيت ربه عز وجل ومنها تنبيه الامة على تقديم ماهو لله تعالى على ما للانفس فيه حظ ما ومنها أخذ أهله الاهبة كما تقدم ومنها ان لقاء الاحبة بغتة قد يؤل الى ذهاب النفس لقوة مايتوالى عليها من الفرح ولذا تلطف يوسف عليه السلام فى لقاء أبيه بالبشير أولا ليعلم أنه فى الاحياء ثم بالقميص ليجد ريحه ثم حصل اللقاء

ومن الآداب ان لا يفعل ذلك الامر بغتة بل بعد المقدمات من اللعب والمزاح الى ان تنبعث الى مايريد والحكمة فى ذلك أنها تحب منه ما يحب منها فلو غافلها فانما اقتضى حاجته فقط

وفى الحديث ثلاث من العجز فى الرجل أن يلقى من يحب معرفته فيفارقه قبل أن يعلم اسمه ونسبه والثانى أن يكرمه أحد فيرد عليه كرامته والثالث أن يقارب الرجل جاريته أو زوجته فيصيبها قبل أن يحدثها ويؤانسها ويندب أن يستتر كلاهما للنهى عن التكشف اذذاك حتى جعله الشارع فعل العيران وكان الصديق رضى الله تعالى عنه يغطى رأسه حينئذ حياء من الله تعالى وأن يترك الفحش وسقط القول لانه ليس من عمل السلف الصالح

وعلى أن تكون المرأة نسيبة أى من أهل بيت الدين والصلاح فانها ستربى بناتها وبنيها فاذا

لم تكن مؤدبة بالدين لم تحسن التأديب والتربية ولذا قال صلى الله عليه وسلم اياكم وخضراء الدمن قالوا وما خضراء الدمن قال المرأة الحسناء فى المنبت السوء وقال صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم فان العرق نزاع

وعلى أن لا يكثر فرحه بالذكر ويحزن بالانثى لان الثواب فى البنات أجزل ولذلك شواهد كثيرة من الشريعة المطهرة ففى الحديث الشريف من كانت له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها وغذاها فأحسن غذاءها وأسبغ عليها من النعمة التى أسبغ الله عليه كانت له ميمنة وميسرة من النار الى الجنة وفيه ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن اليهما ما صحبتاه الا أدخلتاه الجنة وفيه من كانت له ابنتان او أختان فأحسن اليهما ما صحبتاه كنت أنا واياه فى الجنة كهاتين وفيه من خرج الى سوق فاشترى منه شيأ فحمله الى بيته فخص به الاناث دون الذكور نظر الله اليه ومن نظر اليه لم يعذبه

ومعلوم أن البنت هى التى تتصف بصفة الامومة وبر الام فوق بر الاب فلا جرم أن كانت آثر فى الاحسان اليها من الذكر

وقال صلى الله عليه وسلم للحادى رويدك أنجشة رفقا بالقوارير يعنى النساء سماهن قوارير لرقتهن وقال لمن أمره ببر والديه أمك ثم أمك ثم أمك ثلاثا ثم أباك فى الرابعة رواه البخارى ومسلم

ومع أن الآباء هم الابناء والامهات هن البنات لا يكون أبا الا بعد أن يكون ابنا ولا تكون أما الا بعد أن تكون بنتا وان الابوين استويا من هذه الحيثية فكان مقتضى ذلك أن يستويا فى الحقوق لكن الشريعة المطهرة قد زادت حق الام كما ترى وما ذاك الا لكونها المربية الاولى وهى الراعية فى بيت زوجها كما فى البخارى وكل راع مسؤل عن رعيته أفتراها مسؤلة عن تدبير المنزل وأثاثه وغير ذلك من سفاسف الامور وليست مسؤلة عن تربية بنيها

ولا يعزب عنك ما سبق من مراعاة دينها وطيب عنصرها قبل الخطبة وبعبارة أخرى مراعاة تربيتها اى كونها مرباة التربية الدينية قبل الاقدام عليها فلا يتصور فيها والحال ما ذكر أن تهمل تربية بنيها وبناتها او تغفل أمر تأديبهم واصلاح شأنهم ولاهمية التربية

عقدنالهاههنا كلامامخصوصايغني قلّه عن كُثره فالق اليه سمعك

(فصل في التربية)

انما عقدنالهاهذا الفصل مع دخولها في عموم ماعنونابه هذا الباب وشمول ماذكرناه لها عناية بشأنها لتندفع بذلك ما يظنه البعض من أن لاتربية عند المسلمين خصوصا للبنات ومنشأ ذلك ما يشاهدونه في جهالنا الذين خلعوا ربقة الدين ونبذوه وراءهم ظهريا وشذوا عن صراطه المستقيم

والمعترضون لايعرفون الشريعة المطهرة خصوصا مايتعلق منها بمكارم الاخلاق وأحكام المعاملات بجميع أنواعها كما سبق في المقدمة فيغترون بما يشاهدونه في أولئك الجهال من سوء الاعمال وفساد الاخلاق وخرق سياج المروءة بما تاباه صفة الانسانية وينتظمون به في سلك البهائم فيظنون أن هذه المنكرات مقتضى الشريعة الغراء وصُراح القرآن الكريم ويستنتجون من ذلك ان هذا الدين الاسلامي الذي هو فيما يظنون هذه المنكرات انما هو أمارة الدمار والمؤذن بالبوار وانه عنوان الخراب وجادة الحتف وأنه أبعد الاشياء عن نظام الممالك وعُمران البلاد الى آخر ما يرمونه به مما هو منه برآء كما قد طالما سمعناه منهم وشاغبونا به

وعندي ان هؤلاء المعترضين قد اصابوا وأخطؤا وصدقوا وكذبوا ليس من قبيل ائتلاف الضدين ولا الجمع بين النقيضين وانما هو من جهتين مختلفتين وحيثيتين متباينتين

فاصابوا وصدقوا من جهة استنتاج ما ذكروا من تلك المقدمات التي هي ضروب هذه المنكرات لانها مقدمات من الشكل الاول فلا جائز أن يعتورها العُقم أو تتخلف عنها تلك النتائج السُّوأى ولا أن تُنتج سواها

وأخطؤا وكذبوا من جهة جعل هذه المنكرات عين الملة السمحة والشريعة الاسلامية ولهم في ذلك معذرة جلية أما فضلا ؤهم الذين لهم معرفة بالشريعة فليس كلامنا معهم

فاقول

فأقول لهؤلاء المعترضين ان الشريعة الاسلامية غير العمل بها وانما نتكلم فيما تقتضيه الشريعة بقطع النظر عن العمل بها لان المصاب انما تفاقم بسبب نبذها ظهريا ومرجعه كان وكنا وقد والله يحملني الاكثار من هذه الكينونة التي تأبى الاستناد عليها نفس الشريعة لانها انما تأمر بالعمل والفعل لا بالأمل والقول قال تعالى لم تقولون مالاتفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالاتفعلون وكثيرا ما جاء في الكتاب والسنة ذم ترك العمل ولان الانسان انما هو ابن الآن لا ابن كان التي يضرب بها الامثال في محو الاثر والعين ولقد حصر على المنبر يزيد بن أبي سفيان عامل الصديق رضي الله تعالى عنه على بعض أرباع الشام فأحار شيأ ثم لم يلبث أن قال سيجعل الله بعد عسر يسرا وبعد عي بيانا وأنتم الى أمير فعال أحوج منكم الى أمير قوال ثم نزل فطارت بخطبته الاخبار وسارت بها الركبان حتى غبطه عليها عمرو بن العاص وقال هن مخرجاتي من الشام يعني كلماته غير أن لي ندحة في ذلك لكون عبارتي هذه انما هي بصدد الكلام مع أولئك الواهمين

اذا تقرر ذلك فاعلم أن التربية في الاسلام ليست قاصرة على اصلاح الاجسام وتثقيف العقول بالعلوم والمعارف كلا بل التربية في شريعتنا أعم من ذلك وأوسع نطاقا وأحلى مذاقا وأحسن حالا وأطول مجالا وأسبغ ظلا وأعذب نهلا لان ذلك الاصلاح وما عطف عليه انما هو فرع عن أصل ولازم لملزوم ونتيجة لمقدمات وذلك أن التربية في الاسلام يمتد فيها ابتداء الى انتقاء العقائل واجتباء الحرائر واصطفاء الكرائم اللاتي هن محل التكوين ووعاء التخلق فينتظر فيهن للخيم الكريم والعرق السليم والعنصر النقي والاصل التقي حذار شر المنبت وخشية فساد الجرثومة واتقاء سوء المحتد وقد وافاك أثناء هذا الباب من الاحاديث الحاثة على تخير النساء وآداب معاشرتهن مايغنيك عن الاعادة ثم يكون أول ما تلحظه الشريعة المطهرة في المولود بعد ذلك التخير اصلاح الغذاء لامن خصوص نقائه وجودته كما يلحظه غيرنا لان ذلك وحده انما يترتب عليه صلاح هذا الجثمان ليس الأ وهو قدر مشترك بين الانسان والبهائم بل ان في نوع البهيم ماهو منغمس في النعيم بأحسن من كثير من الناس بل تلحظه من هذه الجهة ومن

جهـة أخرى أهم من تلك وهى ما يختص باصلاح النفس ﴿ وبيانه أنه﴾ تلحظ فى الغـذاء هذه الجهة المشتركة بين الانسان والبهيم لا لذاتها بل لقوام البنية التى هى مطية النفس كما سبق لك أوائل الرسالة فتبيح فى الاغذية النقاء والجودة والطيب والنضرة والاغراض والتغريض والغضوضة والغريض والغض والغضيض قال الله تعالى فى كتابه العزيز قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة وقال تعالى الذين يتبعون الرسول النبى الأمّى الذى يجدونه مكتوبا عندهـم فى التوراة والانجيل يأمرهـم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث الى غير ذلك مما فى الكتاب والسـنة فى اباحة الطيبات وتلحظ فيه جهة أخرى هى أهم الجهتين وأربح الصفقتين وهى كونه من الحلال الطيب حتى قدمه الكتاب العزيز على العمل الصالح فى حق الرسل فكيف بسواهم قال تعالى يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا الآية وذلك ليكون قواما للنفس وتطهيرا لهذا السر أن يتدنس بقاذورات الخبائث أو تلوثه أدناس الارجاس فيخبث لاسيما اذا أُلقى اليه العلم فانه يكون أضرّ على الدين والملك من كل سوء اذ يتخذ العلوم آلة للشرور حتى جعل الغزالى اثم ذلك فى عنق معلميه الى يوم القيامة من قبيل من سن سـنة سيئة وتأمل أشرار الاجانب كيف توصلوا بالعلوم الى ضروب من الاضرار يعجز عنها الشيطان الرجيم والعياذ بالله تعالى فيكون الغذاء عندنا ملاحظا فيه أمران صلاح الجسم وصلاح النفس

وانظر الى الصديق رضى الله تعالى عنـه كيف وضع اصبعه فى فيه حتى أخرج من جوفه ما فيه من لقمة كان أحد عبيده قد تكهن بها فى الجاهلية والى الحسـين بن على عليهما السلام لما أخذ وهو طفل تمرة من تمر الصدقة فوضعها فى فيه كيف أخرجها سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم من فمه وقال له كخ كخ أنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة واذا طابت النفس سلم القلب من أمراضه كالحسد والعجب والرياء والحقد والغل الى غير ذلك ونص الغزالى على أن علم أمراض القلب فرض عين وكان نساء السلف اذا خرج الرجل الى عمله يقلن له اتق الله ولا تكسبنّ الا من حلال فانا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار وانك اذا نظرت الى هـذه الكلمة بعـين الانصاف أريد غير عينى الرضا والبغضاء ألفيتها

صالحة

صالحة لأن تشرح بمجلدات يبنى عليها انتظام الدولة ودعائم الحكومة أتبرع لك منها بغيض من فيض على شريطتى فى الالماع استطرادا فأقول

لست تجهل أن معظم الخصومات وما يقع فيه التلاحى بين نوع الانسان من جميع القضايا والشكاوى والدعاوى المختصة بالحوادث الجنائية ونحوها متشعب عن المسائل المدنية والنوازل التجارية والاحرى عن الامور المالية لما تستدعيه المنافسة والمباهاة والمفاخرة والسرف والترف والشغف بالشرف فتتولد الاطماع والتحاسد والاحقاد والضغائن وتثير منها القوة الغضبية الكوامن فيقع التلاحى والتخاصم ثم التشاتم والتلاكم ثم يتجشم الصعب من طعن وضرب حتى يفضى فى بعض الاحيان الى اراقة الدماء وهدم هيكل الجثمان بحيث انك لو سألت سائل علام يتنازع الناس وفيم يختصمون فقلت على عرض دنيوى وحطام من المال ليس غير لكنت قد صادفت المرمى ولم تخطئ المحجة ولا بعدت عن الصواب فان الممقوت الذى أعوزه القوت وتقاضاه بنفقته ولده وذو قرابته خصوصا نفقة عرسه وخويصة نفسه لا يقبلون منه عذرا ولا يغفرون له وزرا بحيث يسمون عجزه تقصيرا وعدمه تقتيرا فيكلفونه المعسور ولا يرضون بالميسور يبذل لا محالة روحه وجسمه فى اصابة ما يسد ذلك الرمق ويقيم هذا الأود من عرض أو مال حلال أو حرام أو حسن أو قبيح أو خبيث أو طيب ويتهافت على ذلك تهافت المستميت يدفع فلا يندفع ويزجر فلا يزدجر ويؤمر فلا يأتمر بخلاف ما اذا كان عاطلا من تلك الربقة وطليقا من ذلك الاسر فانه لا يتجشم البتة مثل هذه الشقة ولا يجتاز تلكم العقبات اذ لا مرية أن الانسان متى اطمأن قلبه وهدأ روعه وسكن جاشه من جهة من تلزمه نفقته وأيقن أنهم راضون بحالته كائنة ما كانت كلا وجلا كثرا وقلا وشدة ورخاء وسعادة وشقاء بحيث لا يكلفونه بما فوق الطاقة ولا يتشوفون لما فى أيدى من فوقهم ولا ينافسون الناس كان ذلك أنعم لباله وأسكن لبلباله وأروح لنفسه وأمنع له عن المخاطرة باقتحام المهلكات واقتراف الشبهات فضلا عن المحرمات فى اكتساب المال وجمع الدرهم والدينار فتقل الشرور وتندر الخصومات وتكاد تنحسم مادة الجنايات

واذا قل التلاحى والنزاع والتشاجر والخصام استراح الناس والحكام وهدأ الراعى

والرعية وسكن العامة والسوقة فيسكن بسكونهم الملوك والامراء والقواد والوزراء وذوو الخطط السنية في أنحاء البلاد وجميع أطراف المملكة فتظل أفراد الامة عاكفة على الاعمال النافعة من حرفة أو صناعة أو أي مهنة كانت ويشتغل كل بما يعنيه وتكون وجهة الجميع انما هي المنفعة وكل ما ينجم عنه فائدة فيتوفر على الدولة جانب عظيم من المال كانت تنفقه في سبيل دفع الناس بعضهم عن بعض اذ يعم الامن وتقل الامراض لان منشأ معظمها عن الانفعالات النفسانية والافراط من تكبد الهم والغم ومقاساة العناء ولفح الهجير وقدح الافكار وكدح الاعضاء وكثيرا ما يتسبب عن ذلك ازهاق الروح كما تقرر في الامم المغلوبة على أمرها اذ يتسارع اليها الفناء لما يستحكم فيها من فرط تلك الآلام واليأس من زوالها والحكايات في أن نوازل الشرور لا بد وأن يؤل سيبها الى النساء وكلام نابليون الاول في ذلك وأسباب ذلك الكلام مشهورة فلا نطيل بذكرها وقد شاهدت بمتحف باريز آثارا تدل على تلك الاسباب

وكأني بك تقول انك انما تأمر بفتور الهمم وكلال العزائم واخلاد الناس الى البطالة (فأقول) لك كلا ثم كلا وانما أنهى عن التظالم وأكل أموال الناس بالباطل والاكتساب من غير حق قال تعالى ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام وذلك أبعث على العمران وانماء النفس والمال فان الامة اذا أمنت في سربها وصحت في جسمها وأيقنت انها لا تظلم ولا تظلم ووطنت نفسها على هذا الامر نتج عن ذلك حسن النظام وازدياد العمران ونشاط القوى وانبعاث الهمم واطراح الكسل وجودة العمل بقوة الامل فلا يجد اليأس اليها سبيلا وتعلم أنت أن اليأس محصدة الآمال ومفسدة الاعمال

والا فما بال الحكومات والدول من كافة الملل والنحل لا يزالون يقاصون أرباب الجرائم وينتقمون من أهل المآثم ويتقاضون الحقوق لذويها والاموال لمستحقيها أليس ذلك لمنع استحلال الحرام من نفس أو عرض أو مال فهلا تركوا الناس فوضى يأكل القوي الضعيف والغني الفقير والعظيم الحقير اللهم غفرا

أما الشريعة الاسلامية ففيها من الحث على علو الهمم واكتساب المعدوم والتشوف للمعالي

والتنزه

والتنزه عن سفاسف الامور وعن أن يكون المرء عالة على الناس مالا تسمه هذه العجالة قال تعالى هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وفى الحديث الشريف اليد العليا خير من اليد السفلى ولأن يأخذ أحدكم أحبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس هذا منعه وهذا أعطاه وان من الذنوب مالا يكفره صوم ولا صلاة الخ وانما يكفره السعى على العيال وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من العجز والكسل وفتنة الفقر وفى الحديث لا تلثوا بدار معجزة أى لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش وقال صلى الله عليه وسلم لمن أراد أن يوصى بثلثى ماله الثلث والثلث كثير انك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس وفى الحديث ان الله تعالى يلوم على العجز (أى التقصير والتهاون فى الامور) وفيه ان الله تعالى يحب المؤمن المحترف (أى المتكلف طلب المعاش بنحو زراعة أو تجارة أو صناعة) وما فتح العبد على نفسه باب مسئلة يسأل الناس الا فتح الله عليه باب فقر وما أكل ابن آدم لقمة خيرا من لقمة يأكلها من كسب يده وكان صلى الله عليه وسلم يتجر وكذا أصحابه وخيار أمته ولم يتخذ العلم حرفة الا بعد فساد الزمان وقد نص بعض أئمتنا على تكفير من يصفه صلى الله عليه وسلم بالفقر لان الله تعالى قد كفاه مهماته

ولم يعد عهدك بما يتعلق بذم الدنيا ومدحها وانها بالنية الشرعية آخرة بحتة قال الغزالى كل مالا يصحبك الى الآخرة فهو دنيا وروى الترمذى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال انما الدنيا لاربعة نفر عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعمل لله فيه حقا فهذا بأفضل المنازل الحديث

فقد وضح لك بما قررناه طرف مما يتعلق بمعنى تلك الكلمة فاحرص عليه جهدك وأنعم لى بالعود الى الكلام قبلها الا نعم لك بقصة فى الرضاع تجعلها قسطاسا لما نحن بصدده وتقيس عليها حال الامة الاسلامية فى التربية وذلك ان الامام أبا المعالى عبد الملك الشهير بامام الحرمين أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى رضى الله تعالى عنه على الاطلاق وهو الذى انتهت اليه رآسة العلماء نحو ثلاثين سنة ولاجله بنى نظام الملك المدرسة النظامية بنيسابور وولى بها الخطابة وكان آية من آيات الله تعالى علما وعملا قد كان والده يتعيش من

نسخ الكتب فاجتمع له ثمن جارية ولم يزل يطعمها من كسب يده حتى حملت بإمام الحرمين ووضعته فأوصاها أن لا تمكن أحدا من ارضاعه ثم دخل عليها يوما وهى مريضة والصبى يبكى وقد شاغلته امرأة من جيرانهم بثديها فامتص منه قليلا فشق ذلك على أبيه فأخذه ونكس رأسه ومسح على بطنه وأدخل اصبعه فى فيه حتى أفرغ جميع ما امتصه والصبى فى خلال ذلك قد كربت نفسه تزهق وأبوه يقول موته خير من فساد أخلاقه فكان الامام اذا لحقته فترة فى مجلس المناظرة يقول هذا من بقايا تلك الرضعة أترى والد هذا الامام فعل غير ما أوجبه عليه القرآن الكريم حيث يقول قوا أنفسكم وأهليكم نارا

وفى تلك القصة غناء عن الاطالة فى هذا المقام وانك متى كنت على ذكر من ذلك فلا يريبنك ما ثبت عن بعض أفراد الامة أن أحدهم كان له من التآليف ما لو وزع على سنى عمره من يوم ولد لما ساواه ذلك الزمن وأن الآخر كان يحفظ كذا لاول مرة فان لصفاء النفوس دخلا فى ذلك بما يشبه خرق العادة فضلا عن ان قوة الحافظة فى غير هؤلاء وأضرابهم ليست بالامر المنكور منحة منحهم الحق تبارك وتعالى بها من أصل الخلقة وقصة حماد الراوية والخوارزمى وأمثالهما فى ذلك مشهورة وقد صح أن ابن الازرق لما أنكر على عبد الله بن عباس رضى الله تعالى عنهما اصاخته الى شعر ابن أبى ربيعة وقال يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم انا نضرب اليك أكباد الابل نسألك عن كتاب الله تعالى وأحكام دينه ثم أنت تعدل الى هراء الشعر فقال ليس فيه من هراء قال أما سمعت قوله

رأت رجلا أيما اذا الشمس عارضت * فيضحى وأيما بالعشى فيخسر

فقال ليس كذلك انما هو يخصر وسرد عليه القصيدة بتمامها وهى تنيف على الثمانين وكان يحفظ لاول مرة لا جرم أن من ربى هذه التربية كان بالملك أشبه والى الملوين أقرب

وبعد فان من حقوق الابناء ذكورا كانوا أو اناثا على آبائهم وأولى أمورهم حسن التربية وأدلة ذلك من الكتاب والسنة لا تحصى قال تعالى قوا أنفسكم وأهليكم نارا وفى الحديث طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة

وههنا حجب يجب اماطتها وأستار يتعين كشفها وذلك أن علوم الشريعة الاسلامية مرتبطة فى كثير من مسائلها بالرياضة والطبيعة زيادة على العلم الاعلى كتعيين القبلة

واختلاف

واختلاف الاوقات أوسقوط بعضها ومعرفة اختلاف المطالع فى الصوم ومساحات الاشكال فى الطهارة والحساب بجميع أنواعه فى قسمة المواريث والمناسخات ومعرفة ألوان الدماء وأنواعه فى الحيض والنفاس والاستحاضة وكذا طعومها ومعرفة مراتب الحيض من سواد وحمرة وصفرة وغبرة وكدرة وقصة وجفاف لاختلاف الاحكام باختلافها والتفرقة بين المنى والمذى والودى وبين المخرج المعتاد وغيره وبيان الحلق والجوف والعروق والاوداج والامعاء والاحشاء فى الطهارة والصوم والذبائح وحل التناول وأنواع الشجاج والقود فى النفس ومادونها والبلوغ بالسن والاحتلام بمعرفة طبائع البلدان وفى الجروح ومسلحاتها وموت اثنين أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب فى وقت واحد أيهما يرث الآخر وغير ذلك مما لا يحصى وكل ذلك مذكور فى كتب الشريعة المطهرة فليست الملة الاسلامية بالتى تحظر تعلم هذه العلوم لمن تمكن فى الدين فانها تزيد المؤمن ايمانا وفرق بين من يعرف الشئ بالاجمال وبين من يعرفه بنوع من التفصيل فان مايذكرونه فى معرفة تركيب الاعضاء ووظائفها مما يبهر العقول فى عظم قدرة الحق عز شأنه وهو من قبيل النظر المامور به فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله تعالى قل انظروا ماذا فى السموات والارض أى من عجائب الخلقة وبدائع الحكم الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته ولذا لم يقل انظروا السموات لان مجرد النظر قدر مشترك بين الآدمى والبهيم وكقوله تعالى وفى أنفسكم أفلا تبصرون أولم يتفكروا فى أنفسهم ماخلق الله السموات والارض ومابينهما الا بالحق الى آيات كثيرة

ولا يقدح فى ذلك أن علماء الاجانب الآن كلما تقدموا فى المعدات والوسائل والفحص والتجارب ظهر لهم الخطأ فى كثير مما أثبتوه قبل وان حقائق كثيرة لاتزال مجهولة لهم وانهم لا يعتقدون فيما عرفوه أنه ثابت بوجه القطع ولا ان ليس له سبب آخر يجهلونه هكذا سمعت من فضلائهم بباريز وغيرها لان ذلك مع تطرق الاحتمال اليه وكون معظمه من قبيل الحدس والتخمين لا يخلو من فائدة ومنافع جمة كما لا ينبغى أن يريبك أيضا اضطراب عقيدة البعض ممن يزاولون هذه العلوم لان سبب ذلك جهل المعلمين بالشريعة الغراء والا فجميع علماء الاجانب معترفون بما ذكرنا وأنهم لم يحيطوا بجميع ما أودع البارى

تقدست أسماؤه فى كائن من الكائنات فضلا عن جميع الكائنات كيف وهو سبحانه يقول ما أشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق أنفسهم

ولقد نشر بعض فضلائهم مقالة عربتها جريدة راحة القراء فى عدد ٩ صحيفة ٢٦٦ فى أول ابريل سنة ٨٩ حاصلها أنه مخوف جدا من أن علومهم التى يفتخرون بها الآن يظهر بعد مائة سنة أنها باطلة منسوخة اه

وبالجملة فانا نقر بفضل هؤلاء الاجانب فيما أتقنوه وزادوا عليه وحسنوه مما وصل اليهم من الامة العربية قال تعالى ولا تبخسوا الناس أشياءهم لكننا مع ذلك لا نبلغ بهم أوج الاغراق كما هو معتقد غلاتنا فيهم فلقدار تقوا بهم من تقى صعبا كاد يزاحم الاملاك ويحاذى الافلاك ولا نحط من قدرهم الى درك الحضيض الذى أهبطهم اليه جهابذتهم كالموسيو (فيرخو) رئيس المؤتمر الطبى المزمع انعقاده فى برلين حيث قال قد ذكرت لكم منذ عهد قريب حينما تكلمت على أوبئة عام ١٨٤٨ أن عقل الاوروباويين فى ضعف وانحطاط فالآن قد أثبت ذلك طبيب من مشاهير الاطباء المولعين بالبحث فى العقل البشرى وهو الموسيو (كارل ستارك) بعد غاية الفحص فى عقولهم وأمراضها وأسبابها وأعراضها فقال انهم مصابون بالمرض العقلى المعروف بالبله الشللى وبمرض آخر يعرف بالجنون العقلى اه عرب لنا مضمون هذه الجملة الاديب الاريب السيد محمد توفيق البكرى ولقد شاهدت فى أوروبا من بعض جهالنا أنه يكاد أن ينكر البديهيات اذا قالها القرآن ويذعن للمستحيلات متى عزيت الى الموسيو فلان ويقول الموسيو ان الامر الفلانى حزر وتخمين ويقول هو نقلا عنه انه جزم ويقين فبالغت فى نصيحتهم وأرجو لى ولهم حسن التوفيق وقد أخبرنى الثقة العلامة المرحوم السيد عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف المصرية سابقا أنه سمع من الطبيب الحاذق المرحوم محمد على باشا أنه ثبت بالتشريح البشرى أن سمك عظم الدماغ الذى من داخله المخ يختلف باختلاف الناس وأنه فى العرب أرق منه فى سواهم بمعنى أن التجاويف المشتملة على المخ فيهم أوسع منها فى غيرهم فهم لذلك أرجح الناس عقلا اه

هذا وبعد اعتراف الاجانب باحتمال تطرق الخطا لما يثبتونه الى آخر ما قدمناه فلا ينبغى

لمن

لمن فيه مسكة من عقل أن يرتاب في شيء مما ثبت في الشريعة المطهرة لمجرد مخالفته بزعمه لتلك المثبتات الحديثة فضلا عن القديمة العهد وبه يعلم أن تسارع بعض علمائنا الى تأويل ما يخالف تخليط القدماء لمجرد هذه المخالفة اجتراء على الدين كما وقع لبعض المفسرين في آية أولها لذلك ثم ثبت ظاهرها تماما باكتشاف علماء الاجانب

ومن هذا القبيل ما أطال به الشهاب والبيضاوي في تأويل الآيات الدالة بظاهرها على أن الشهب من الكواكب بفرض صحة قول الحكماء انها أجزاء بخارية دخانية لطيفة وصلت الى كرة النار فاشتعلت الخ مع ما شاهده علماء المراصد الفلكية في أوروبا من سقوط جملة أنجم من أنحاء الكواكب السيارة بلغ عددها مائة وستين ألفا وقالوا انها شذرات من الانجم ذوات الذنب والعبارة مبسوطة في الوقائع المصرية بعدد ١٥٣٨ المؤرخ في ٢ ر سنة ١٣٠٠ وما قالوه من أن الكرة الارضية منفصلة عن كوكب وأن النجيمات أصلها نجم كبير تجزأ الى هذه القطع ومن ذلك يعلم انه لا محذور في انشقاق القمر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تأويل آيته بايقاع المستقبل موقع الماضي لتحققه لا داعي اليه فضلا عن كونه خلاف الصحيح كما أن قولهم في مذهب السلف الذي هو تفويض المتشابه مع التنزيه انه أسلم وفي مذهب الخلف الذي هو تأويل ذلك انه أعلم عبء ثقيل وخطب جليل اذ لا يسع مسلما مهما توسع في العلوم أن يقول انه أعلم من أبي بكر وعمر الخ وأجابتهم عن ذلك تكلفات لا تغني من الحق شيئا ذلك مع ما ثبت عن امام أهل السنة الاشعري أنه ذكر في كتابه الابانة في أصول الديانة الذي هو آخر مؤلفاته وعليه التعويل في مذهبه كما نص عليه جمع انه لم يكن يقول بالتأويل الا في مقام الجدل لالزام الخصوم وانه لا يدين الله تعالى الا بمذهب السلف وكذا في كتب الامام الماتريدي

وبعد فلم يزل السلف على ما ذكرنا من حسن التربية والتعليم حتى ان عبيدهم واماءهم مشتركون معهم في ذلك ألا ترى أن بنت سعيد بن المسيب لما أصبح زوجها من ليلة زفت اليه وكان من تلامذة أبيها وأخذ رداءه يريد الخروج قالت له الى أين قال الى مجلس أبيك سعيد أتعلم العلم فقالت اجلس أعلمك علم سعيد وحسبك بسعيد هذا فهو من رجال البخاري وثقاته وكان الامام مالك يقرئ الموطأ فاذا لحن القارئ في حرف أو زاد أو نقص

وقد ذكرت الجرائد الاجنبية مقالة عربتها جريدة الانسان العربية التي كانت تطبع بالاستانة العلية حاصلها أنه عثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه انه بني عام كذا الذي وقع فيه حادث سماوي عظيم وهو انشقاق القمر نصفين فحرر الحساب فوافق سنة انشقاقه لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم اهـ مؤلفه

دقت ابنته الباب فيقول أبوها للقارئ ارجع فالغلط منك فيرجع القارئ فيجد الغلط وحكى صاحبه أشهب أنه اشترى بالمدينة المنورة خضرة من جارية وكانوا يبيعونها بالخبز ووعدها بالثمن عشية فقالت ذلك لا يجوز قال ولم قالت انه بيع طعام بطعام غير يد بيد فسأل عنها فتبين أنها جارية بنت امامه مالك بن أنس وقرأت زوجة الامام ابن أبي جمرة عليه نصف الموطا ورسالة ابن أبي زيد والقرآن الكريم بتمامه حفظا وسيوافيك آخر الباب الكلام على ذلك الحفظ وأنه غير الحفظ الآن فاذا بلغ المولود سبعا أمر بالصلاة وضرب عليها لعشر كصوم أطاقه

وللصلاة والصوم خصائص في اصلاح النفوس والاجسام تضيق عنها هذه العجالة لكن لابد من ذكر شيء من ذلك فنقول ان الطهارة التي لا تصح الصلاة بدونها وهي طهارة الملبس والبدن والمكان من النجاسات لونها او طعمها او ريحها يلزمها من النظافة في هذه الثلاثة أعني الملبس والبدن والمكان ما لا يبلغه المترفون الذين لا يقيمون الصلاة مهما بالغوا في الرفاهية وانغمسوا في النعيم لان ذلك لا يفيدهم الانظافة صورية ونضرة ظاهرية اذ النظافة عندنا من آكد الامور الشرعية حتى سن رسول الله صلى الله عليه وسلم الغسل لمجرد ملاقاة الناس ويتكرر بتكررها ونهى أن يبيت الرجل في يده غمر وهو بالتحريك ريح اللحم والسمك ونحوهما وما يعلق باليد من دسمهما وقال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود الأفنية جمع فناء وهو الفضاء أمام الدار فنهينا عن التشبه باليهود في قذارتهم وقذارة أفنيتهم ولذا كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولاصحابه مزيد حرص على نظافة الملبس والافنية وكان يتعاهد نفسه الشريفة ولا تفارقه المرآة والسواك والمقراض قال أبو داود وهذا الحديث من الاحاديث الاربعة التي عليها مدار السنة

وفي الصلاة والصوم من رياضة الاعضاء والنفوس ما تشهد به البداهة وقد ورد في رياضة الاعضاء بالحركة المعروفة عند الاجانب بالجمباز أحاديث جمة ذكرنا منها في المواهب جملة صالحة كالامر بالاخشيشاب في حديث عمر رضي الله تعالى عنه اذ قد فسره أئمتنا منذ

أكثر من ألف سنة بأنه ابتذال النفس فى العمل ليغلظ الجسد حتى لقد وردت الرياضة فى عضوى اللسان والعين والقوم كما يقول شاعرهم .

كتب القتل والقتال علينا • وعلى الغانيات جر الذيول

وجر الذيول وجعلها طبقات كما تفعل نساء أوربا الآن عادة عربية قديمة وأشعار الجاهلية والاسلاميين ملأى بذكرها

فالصوم عندنا عبارة عن كبح زمام الشهوتين حتى اللسان حتى الافكار من خواطر السوء والصلاة يقول الله تعالى فيها ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر

وأنا أسوق اليك عن بعض رجال الامة ما يكفيك فيها وأكل الحكم فى التربية بها الى انصافك فقد رضيتك حكما وخصما هذا الشيخ أبو الحسن الشاذلى لما ورد الديار المصرية اجتمع عليه مشيخة العصر وجهابذة العلماء فقال لهم هل أنتم من المصلين فاستنكروا ذلك منه وقالوا أما منا الامن يصلى فقال ليس عن هذا أسالكم ولكنى أسال عن المصلين الذين يقول الله تعالى فيهم ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم والذين يصدقون بيوم الدين والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ان عذاب ربهم غير مأمون والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون فبكى القوم جميعا وقالوا ليس فينا من يصلى

ولست أريد تكليف الاطفال بمثل هذه الصلاة بادئ بدء بل بأى صفة كانت ما دامت صحيحة لانه لما كانت المبادى عنوانا على الغايات كان تمرين الاطفال عليها فى أول التربية وعلى بقية آداب الشريعة الغراء مؤذنا بكل خير الى غير ذلك من الاخلاق الزكية والسيرة الشريفة النبوية واذا كان أمران من أمور الدين قد ترتب عليهما من اصلاح النفس والجسم وحسن التربية والاخلاق ما رأيت بعضه مما وسعه المقام فكيف بقية أموره وآدابه فاكتفى بهذا المقدار

أما تعليمهن الكتابة فلا نزاع عندنا في جوازه مالم يترتب عليه مفسدة وهذا عام في جميع الامور وقد نصوا على أن تعليم الصنائع فرض كفاية لو تركه الكل أثموا ولا حظر في تعليم النساء بعد الدين شيأ من الصنائع اللائقة بهن كالخياطة والنسج والتطريز

وقد كان في عهد النبوة معلمات للكتابة يعلمن النساء منهن الشفاء بنت عبد الله وكان في نسائه صلى الله عليه وسلم من يحسن الكتابة كعائشة وحفصة وشرط رسول الله صلى الله عليه وسلم على من لم يقتدر من أسارى بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة ويكون ذلك فداءه

وأمر صلى الله عليه وسلم بعض كُتّابه وكانوا اثنين وأربعين بتعلم لغة أجنبية فكان يكتب بها ويقرأ ولا تنافي كونه صلى الله عليه وسلم كتب وعدم منافاة ذلك النص بأميته لكونه بعد تقرر النبوة بدليل ما وقع في كتاب الحديبية كلام مبسوط في محله وكان لعبد الله بن الزبير جملة غلمان لكل غلام لغة فكان يحسنها ويخاطب كلاً بلغته والخليفة الواثق العباسي كان يحسن أربعين لغة ويعاري بها ويتكلم وفي الحديث الشريف ان من حق الولد على والده أن يعلمه الكتابة أي الخط لانه عون على الدين والدنيا

ونص أئمتنا على ان كتابة العلم واجبة لحديث قيدوا العلم بالكتاب واسناده صحيح ولا ينافيه حديث مسلم لا تكتبوا عني شيأ غير القرآن لان النهي خاص بوقت نزوله خوف لبسه بغيره بل كان أبناء الجاهلية يتعلمون الكتابة ومنهم من يزيد عليها بعض اللغات الاجنبية وكانت بنات القرى بل وجواريها يحسن الكتابة في الجاهلية

هذا عدي بن زيد بن حماد كان أكتب الناس بالعربية والفارسية حتى استكتبه كسرى في دواوينه وكذا أبواه زيد وحماد كانا أكتب الناس قبله وولي زيد رآسة البريد لكسرى زمنا طويلا وهذا زياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذبياني المعدود من الطبقة الاولى في شعراء الجاهلية بعد امرئ القيس قد أصلحت له جواري المدينة شعره حتى قال دخلت الحجاز وفي شعري ضيعة ورحلت عنها وأنا أشعر الناس في قصة طويلة ساقها المرزباني في الموشح وحاصلها انه أقوى في ثلاثة مواضع من شعره أحدها قوله آخر قصيدة مجرورة القافية

تبدو كواكبه والشمس طالعة * لا النور نور ولا الاظلام اظلام

والثانى قوله

زعم البوارح ان رحلتنا غدا * وبذاك خبرنا الغداف الاسود

بعد قوله

من آل مية رائح أو مغتدى * عجلان ذا زاد وغير مزود

والثالث قوله

بمخضب رخص كأن بنانه * عنم يكاد من اللطافة يعقد

بعد قوله

سقط النصيف ولم ترد اسقاطه * فتناولته واتقتنا باليد

قال المرزبانى فقدم المدينة فعيب ذلك عليه وأسمعوه اياه فى غناء وأهل القرى ألطف من أهل البدو وكانوا يكتبون جواريهم عند أهل الكتاب اه آخر العبارة بحروفه

وقد أجمع أئمتنا رحمهم الله تعالى على جواز الغزو بالنساء وأن يرضخ لهن أى يعطين قليلا فان قاتلن أسهم لهن ولقد كن يخرجن مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسقين العطشى ويداوين الجرحى وبعضهن يباشر القتال فانه لما بلغ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة حنين ان أم سليم بيدها خنجر قال ما تصنعين به قالت أبقر به بطن من دنا منى فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قد كفى الله يا أم سليم كما فى صحيح مسلم

وقد بارز كثير منهن الابطال وخاض غمرات القتال وحسبك أنباء جهيزة أم شبيب الخارجى وأنباء زوجته غزالة فهى تخجل شجعان الرجال بجلا تلبس به الذكران براقع النسوان ولقد نذرت مرة لتصلين فى مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما سورتى البقرة وآل عمران فأقدمت على المسجد فى سبعين فارسا فصلت فيه الغداة وخرجت من نذرها وبرزت يوما للحجاج فكشفته عن عسكره وقصدت الراية فولى بين يديها منهزما وفى ذلك يقول من يهجوه

أسد على وفى الحروب نعامة * فتخاء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت الى غزالة فى الوغى * بل كان قلبك فى جناحى طائر

وأنباء ليلى بنت طريف أخت الوليد بن طريف الخارج على الرشيد وغيرهن مماليس هذا محل استيفائه

وقد تولى منهن الملك فى الجاهلية والاسلام كثير فأحسن التدبير وقمن بأعباء الدولة أحسن قيام ولعلمائنا فى التربية أسفار عديدة وكتب مفيدة لايسعنا تعداد أسمائها فضلا عن سرد ما احتوته وبعضها برسم أبناء الملوك كمؤلف ابن هبة الله بن العديم للملك الظاهر غازى حين ولد له ولده الملك العزيز وبعض الابناء مؤلفيها ككتاب أيها الولد والوصية للامام فخر الدين الرازى وغير ذلك

﴿ فائدة مهمة ﴾

لاتحسبن أن سبب غلبة الامية على جاهلية العرب وتقشف البداوة فى أعرابهم عدم الاستعداد أو العجز عن رغد العيش بل ان فرط الذكاء الى الحد الثابت لهم فى الفراسة والعيافة والقيافة هو سبب زهادتهم فى الكتابة وعزوف أنفسهم عنها فضلا عن جرها على العامة أنفة من ملوك حمير فقد كانت لهم كتابة تسمى المسند وحروفها منفصلة غير متصلة فكانوا يمنعون العامة من تعاطيها فلا يتعاطاها أحد الا باذنهم

وأما التقشف فسببه علو همتهم عن أن يكون همها التأنق فى المطعم والملبس وأنواع الرفاهية حتى لقد كانوا سوقة وملوكا يتمدحون بالاقامة فى البدو ويعدون الاقامة فى الحضر من نوائب الزمان وطوارق الحدثان قال امرؤ القيس مع ملكه ورفاهيته

ألا هل أتاها والحوادث جمة * بأن امرأ القيس بن تملك بيقرا

تملك اسم أمه وبيقر أقام فى الحضر وترك أهله بالبادية انظر كيف وضع قوله والحوادث جمة جملة معترضة ليفيد أن هجرته من بلاده حادثة مدلهمة وطامة كبرى لان البيت من قصيدة قالها فى رحيله الى القسطنطينية مستمدا قيصر الروم ولابى العلاء المعرى فى ذلك المعنى

الموقدون بنجد نار بادية * لايحضرون وفقد العز فى الحضر

وهذه ميسون بنت بحدل الكلبية زوج معاوية أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه كانت بدوية فتزوجها وأقامت بالشام فى بحبوحة الملك ومحل النعيم وخفض العيش ورفاهية

المدينة ونضرة الحضارة ورغد الحال وكانت حملت بولده يزيد فلم تجلد على انتظار الوضع ثمة بل أخذت تهتف بقصيدة تقول فى آخرها بعد ما فضلت عيشها فى البدو على عيشها ببيت الخلافة ودارة الملك

خشونة عيشتى فى البدو أشهى * الى نفسى من العيش الطريف

فما أبغى سوى وطنى بديلا * فحسبى ذاك من وطن شريف

وذكر الامام عبد الملك بن قُرَيْب الشهير بالاصمعى انه لقى أعرابيا قال فقلت مَن الرجل قال من بنى أسد قلت من أين أقبلت قال من البادية بأرض ما نريد منها بدلا ولا نبغى عنها حولا نَجَعتها الغاديات وحَفتها الفَلَوات أرض فيها لعَمْر الله ليس بها أذًى ولا قذى ولا وعك ولا توم فنحن فيها بأطيب عيشة وأرفه معيشة فقلت وما طعامكم فقال بخ بخ أطيب طعام وأهنؤه وأمرؤه الهَبِيد والقَطْس والعَنْكَث والعِلْهِز والطَرائِثُ والضِباب وربما والله أكلنا القِدّ واشتوينا الجِلْد فما نرى أن أحدا أحسن منا حالا ولا أرخى بالا ولا أخصب رجالا فالحمد لله على ما رزقنا من القناعة وحسن الدعة أما سمعت ما قاله قائلنا وكان عالما بلذة العيش وأهناه قلت وما قال فأنشدنى

اذا ما اصطدنا كل يوم مُذَيْقة * وخَمْس تُمَيْرات صغار كوانز

فنحن ملوك الارض خصبا ونعمة * ونحن ليوث الغاب عند الهزاهز

وكم متمنّ عيشنا لا يناله * ولو ناله أضحى به جد فائز

الهَبِيد حب الحنظل والعِلْهِز دم يعالج فى الوبر يؤكل فى الشدة والعَنْكَث نبت يكون فى الفلاة اذا هبت الريح قلعته من أصله والقَطْس شجرة تأكل منها الابل فيصيبها الهُيام وقال رؤبة بن العجاج لمن لامه على أكل الفأر انها أنظف من دواجنكم اللاتى يأكلن العذرة وهل يأكل الفأر الاّ نَقِيَّ البُرّ ولُباب الطعام اه ولا يخفى أن أهل باريز يأكلون الفأر ويصنعون من لحمه الفطير المعروف بالبقلاوة ويستعملون جلده فى القفاز الذى يلبس فى الايدى وثمن الفأر هناك الى نصف فرنك وكذا يأكلون الضفادع ويطبخونها فى كثير من الفنادق وقال أعرابى فى فيوم العراق

عجبت لعطار أتانا يسومنا * بدسكرة الفيوم دهن البنفسج

فويحك باعطار هلا أتيتنا * بضغث خزامى أو بخوصة عرفج

ولما قال معوية لميسون هذه كنت فبنت قالت والله ماسررنا اذ كنا ولا أسفنا اذ بنا ثم لحقت بأهلها فولدت يزيد هناك

وبالجملة فلم تكن فطرتهم السليمة بالتى تطاوعهم الى التسفل فى حضيض الشهوتين قال الاحنف جنبوا مجالسكم النساء والطعام أى لاتذكروهما فلم يكونوا يذكرون النساء الا فى ضروب الغزل والنسيب بغية الاستمالة المعهود ولا الطعام الا فى الحض على قرى النزيل أو الانفة من الشره اليه فحايد ذلك ولذا كانوا يهجون من اتسم بوصمة البخل وقصر فى قرى الضيفان ولو كان ملكا قال طرفة يهجو ابن هند ملك الحيرة من أبيات

اذا الرجال شتوا واشتد أكلهم * فأنت أبيضهم سربال طباخ

يقول اذا دخل فصل الشتاء الذى يمتنع فيه التصرف وتنقطع الميرة وتغلو الاسعار ويشتد القوت كان سربال طباخك نقيا مبيضا أو أشد بياضا وذلك للؤمك اذ لو كنت كريما لاسود لكثرة الطبخ على ما عهد فى سرابيل الطباخين (قلت) وذلك خلافا للطباخين فى أوروبا فقد شاهدت سيماهم البياض

ولقد كان الميسر منقبة فى الجاهلية اذ كانوا لا يلعبونه الا أيام القحط والجدب وكان الفائزون يفرقون ما يأخذونه على الفقراء ولذا كانوا يتمدحون به ويمدحون قال أبو طالب عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يرثى ختنه أبا أمية بن المغيرة من قصيدة

ألا ان زاد الركب غير مدافع * بسرو سحيم غيبته المقابر

بسرو سحيم عارف ومناكر * وفارس غارات خطيب وياسر

أزواد الركب من قريش ثلاثة هذا ومسافر بن عمرو بن أمية بن عبد شمس وزمعة ابن الاسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى سموا بذلك لانهم كانوا اذا سافروا لم يتزود معهم أحد وسرو سحيم مكان وعارف من العرافة وهو القائم بسياستهم المدبر أمورهم ومناكر أى مقاتل وياسر أى لاعب بقداح الميسر

نعم انهم كانوا اذا قصدوا المبالغة فى جودة الشعر زموا الخلوة ونقى الطعام والشراب حتى ان قريشا لما أرادت معارضة القرآن الكريم عكف فصحاؤهم الذين تصدوا لذلك على

لباب

لباب البر وسلاف الخمر ولحوم الضأن والحلوة الى أن بلغوا مجهودهم فلما سمعوا قوله تعالى وقيل يا أرض ابلعي ماءك الآية يئسوا مما طمعوا فيه وعلموا أن مخلوقا لا يقدر على ذلك وانك لو سمعت محاورات صبيانهم وبداهات أغيلمتهم علمت عن غير تقليد أن ذلك لا يتأتى أن ينشأ عن سوء تربية أو فساد أخلاق لان الأدنى لا ينتج شيأ وانظر مسامرات الاصمعي للرشيد في بداهات غلمة الأعراب تر العجب العجاب ولنقتصر للتمثيل منها على هذه القصة وهي أن غلاما من بني أسد وقف على الاصمعي في أطمار رثة لا يظنه رائيه يجمع بين كلمتين قال فقلت له ما اسمك قال حريقيص فقلت له ما كني أهلك أن سموك حرقوصا حتى صغروا اسمك ـ الحرقوص كعصفور دويبة كالبرغوث ـ فقال ان السقط يحرق الحرجة ـ السقط ما يسقط من الزند اذا قدح والحرجة بقصتين الشجر الملتف ـ فعجبت من جوابه واتصل الكلام بيننا فقلت أنشدنا شيأ من أشعار قومك فقال أنشدك لمرارنا

سكنوا شبيثا والأحص وأصبحت * نزلت منازلهم بنو ذبيان
واذا يقال أتيتم لم يبرحوا * حتى تقيم الحرب سوق طعان
واذا فلان مات عن أكرومة * رقعوا معاوز فقده بفلان

قال فكادت الأرض تسوخ بي لحسن الانشاد وجودة الشعر فقال الرشيد وددت لو رأيت هذا الغلام فكنت أبلغه أعلى المراتب

ولو لم يكن لبناتهن سوى قراءة القرآن الكريم لكفاهن في التربية ولا تحسبن ذلك مجرد قراءة بلا فهم معنى كما هي الآن بل كان من لوازم القراءة بعد فهم المعنى معرفة علوم القرآن فيعرف القارئ الناسخ من المنسوخ والمحكم والمتشابه والعام والخاص والمطلق والمقيد ومنسوخ الحكم ومنسوخ التلاوة والليلي والنهاري والحضري والسفري وأسباب النزول الى غير ذلك من العلوم التي سرد السيوطي بعضها في الاتقان

ولقد بلغ من عناية نسائهن بقراءة القرآن الكريم أن صار ذلك مدحة لهن وخصيصى بحرائرهن يمتزن بها عن الاماء وللشعراء في ذلك أماديح كثيرة منها ما للراعي النميري والقتال الكلابي وقد تواردا عليه وكانا معاصرين لجرير والفرزدق في الدولة المروانية قال الراعي من قصيدة فوق الخمسين بيتا

صلّى على عزة الرحمن وابنتها * ليلى وصلّى على جاراتها الأُخَر
هنّ الحرائر لا ربات أحمرة * سود المحاجر لا يقرأن بالسور

وقال القتّال لابنه عبد السلام

عبدَ السلام تأمّل هل ترى ظعنا * إنى كبرت وأنتَ اليوم ذو بصر
لا يُبعِد الله فتيانا أقول لهم * بالابرق الفرد لمّا فاتني نظرى
يا أهل ترون بأعلى عاصم ظعنا * نكّبن فلْجين واستقبلن ذا بقر

صلّى على عمرة بدل عزة فالى آخر بيتى الراعى والمعنى يقولان هنّ الحرائر أى الكريمات وليست الحرائر الاماء السود رعاة الاحمرة بالمهملة جمع حمار سود المحاجر اللاتى لا يقرأن سور القرآن الكريم ومراده سود الاجسام وانما خص المحاجر لانها أول ما يرى كقول النابغة * ليست من السود أعقابا اذا انصرفت * وانما أراد سواد الجسد كله وخص الحمر لانها عندهم رذال المال وشره حتى قالوا شرّ المال ما لا يزكّى ولا يذكّى وكذا كانت غلمانهم فى قراءة القرآن الكريم اذا بلغ الغلام خمس سنين سلّموه الى المؤدب فاذا بلغوا الحلم ألبسوهم العمائم وقلدوهم السيوف بدل التمائم

وانى أقتصر لك فى هذا المقام على حديث المفضل لتزداد به رشدا قال المفضل نزلت علينا بنو تغلب فى بعض السنين وكنت مشغوفا بأخبار العرب أحب ان أسمعها وأجمعها فانى لفى بعض أحيائهم اذا أنا بامرأة واقفة فى فناء خبائها وهى آخذة بيد غلام قلّما رأيت شبيهه فى حسنه وجماله له ذؤابتان مضفورتان كالسَّبَج المنظوم وهى تعاتبه بلسان رطب وكلام عذب يقبله السمع ويترشفه القلب وأكثر ما أسمع من كلامها يا بُنَيّ وأى بُنَيّ وهو يتبسم فى وجهها قد غلب عليه الحياء والخجل كأنه جارية بكر لا يحير جوابا فاستحسنت ما رأيت واستحليت ما سمعت فدنوت فسلمت فردّ علىّ السلام ووقفت أنظر اليهما فقالت يا حضرىّ ما حاجتك قلت الاستكثار مما أسمع منك والاستمتاع من حسن هذا الغلام فتبسمت المرأة وقالت يا حضرى ان شئت أن أسوق اليك من خبره ما هو أحسن من منظره قلت هاتى قالت حملته تسعة أشهر حملا خفيفا خفيا والعيش كدر والرزق عسر حتى اذا شاء الله أن أضعه وضعته خلقا سويا فوربك ما هو الا أن صار ثالث أبويه حتى رزق

الله

الله فأفضل وأعطى فأجزل ثم أرضعته حولين كاملين حتى اذا استتم الرضاعة نقلته من خرق المهد الى فراش أبويه فربي بينهما كأنه شبل أبواه يقيانه برد الشتاء وحر الهجير حتى اذا تمت له خمس سنين أسلمته الى المؤدب فحفظ القرآن الكريم فتلاه وعلم الشعر فرواه ورغب في مفاخر قومه وطلب مآثر آبائه وأجداده فلما بلغ الحلم حملته على عتاق الخيل فتفرس وتمرس ولبس السلاح ومشى بين بيوت الحي وأصغى الى صوت الصارخ وأنا عليه وجلة أحرسه من العيون أن تصيبه ومن الألسن أن تعيبه وتداخله العجب والخيلاء الى أن نزلنا منهلا من المناهل وشاء الله أن أصابته وعكة شغلته فركب فتيان الحي في طلب ثأر لهم حتى لم يبق في الحي أحد غيره ونحن آمنون فوربك ما هو الا أن أدبر الليل وأسفر الصبح حتى طلعت علينا غرر الجياد ثوارا غير زوار فما كان الا هنيهة حتى حازوا الاموال من دون أهلها وهو يسألني عن الصوت وأنا أستر عليه الخبر اشفاقا وحذرا عليه الى أن علت الاصوات وبرزت المخدرات فثار كما يثور الاسد المغضب فأمر باسراج فرسه وصب عليه سلاحه وأخذ رمحه وركب حتى لحق حماة القوم ونحن ننظر اليه فطعن فارسا فرماه وانحاز متميزا وانصرفت اليه وجوه الفرسان فرأوا غلاما صغيرا فحملوا عليه وأقبل يؤم البيوت ونحن ندعو له حتى اذا ما دهموه عطف عليهم فطعن أدناهم منه فقطره ومرق كما يمرق السهم من الرمية وقال خلوا عن المال فوالله لا رجعت الا به أو لأهلكن دونه فتداعت اليه الفرسان وتمايل عليه الاقران فرجعوا وقد نصبوا له الأسنة وقلصوا له الاعنة وجعلنا من وراء ظهره وجعل يهدر كما يهدر الفحل ولا يحمل على ناحية الا حطمها ولا يقصد فارسا الا قتله وكل ذات رحم منا باسطة يدها الى الله تعالى بالدعاء له اشفاقا عليه ووجدا به الى أن كشفهم عن المال وقد أشرفت أوائل خيل الحي فكبر الناس وولى القوم منهزمين فوالله ما رأينا وما كان أقبح صباحا وأحسن رواحا من ذلك اليوم ولقد سمعته ينشد أبياتا بعد منصرفه من الحرب وهي

تأملن فعلي هل رأيتن مثله * اذا حشرجت نفس الكمي من الكرب
وضاقت عليه الارض حتى كأنه * من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلا حقه ونصيبه * من السمهرى الادن والصارم العضب
أنا ابن أبى هند بن قيس بن خالد * سليل المعالى والمكارم والحرب
أبى لى أن أعطى الظلامة مرهف * رقيق وطرف مجفر الجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده * شماريخ رضوى لانحطن الى الترب
فان لم أقاتل دونكن وأحتمى * لكن وأحيكن بالطعن والضرب
وأبذل نفسا دونكن عزيزة * على لاطراف القنا وظبى القضب
فاصدق اللائى سعين الى أبى * يهنئنه بالفارس البطل الندب

وأما احتمال ذات التين فقد وافاك ما يدل عليه شرعا وأزيدك هنا قصتى سكينة وخالد لتعلم أن ذلك قد بلغ فى الاسلام مبلغا عظيما فألق الى السمع

أما سكينة فهى بنت الحسين بن على أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنهم أجمعين كانت غاية فى الكمال والجمال والعلم والادب وسعة الثروة ولها فكاهات تروق القلوب مع نهاية ما يتصور العقل من عفة وصون واسمها آمنة وسكينة لقب عليها حتى قيل لها أتدك فاطمة وأنت تمزحين وهذه أختك فاطمة لا تمزح فقالت لانكم سميتموها باسم جدتها المؤمنة وسميتمونى باسم جدتى التى لم تدرك الاسلام تعنى فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمنة بنت وهب أمه صلى الله عليه وسلم وقد أمهر سكينة مصعب ألف ألف درهم وأعطى أخاها عليا الذى حملها اليه أربعين ألف دينار وكانت تقول دخلت على مصعب وأنا أحسن من النار الموقدة فى الليلة القرآء انظر ما أبلغ هذا المعنى والنار فى مثل تلك الليلة ينتفع منها بالضوء والدفء وقد تقرر أن البرودة فى الصيف والسخونة فى الشتاء من سيما عقائل الحرائر وذلك كثير فى شعر العرب قال الاعشى

وتسخن ليلة لا يستطيع * نباحا بها الكلب الأهريرا
وتبرد برد رداء العروس * بالصيف رقرقت فيه العبيرا

وبانت من مصعب بالزباب زوجتها الابن عمها عثمان بن عمرو بن الزبير فكشفت عنها يوما لبعض النساء واذا هى قد أثقلتها بالحلى واللؤلؤ فقالت ما ألبستها اياه الا لتفضحه وكانت سكينة أحسن الناس شعرا وكانت تصفف جمتها تصفيفا لم ير أحسن منه حتى ضرب بها

المنزل فكان يقال جمة سكينية وكان عمر بن عبد العزيز يجلد الرجل اذا صفف الجمة السكينية

وكانت عليها السلام من احسن اهل زمانها فى ذلك مع العلماء والامراء والشعراء احاديث يطول شرحها فلنقتصر من ذلك على ملخص حديثها مع أشعب وجاريتها بشانة والفرزدق بمفرده ومع جرير وجميل وكثير ونُصَيب

فاما حديثها مع أشعب فهو أن زوجها زيد بن عمرو بن عثمان بن عفان لما أراد أن يصحب الخليفة سليمان بن عبد الملك فى حجة حجها بعثت معه أشعب لانه كان منقطعا اليها يصله برها على الدوام ليكون عينا لها عليه لئلا يعدل الى مكان يسمى العَرج له فيه جوار فلما انقضى الحج وانصرف الخليفة من غير طريق المدينة بعدما أجزل صلة زيد وقضى حوائجه تاقت نفس زيد الى جواريه فوصل أشعب باربعمائة دينار على أن يكتم خبره عن سكينة واستحلفه على ذلك ثم سار وترك عنده رحله وفرسه وحلته وطيبه فلم يلبث أشعب أن ركب الفرس ولبس الحلة وتطيب بالطيب واقتفى أثر ولائد أعجبنه رآهن يستبقن فى غدير ثم سألهن المحادثة مع مواليهن فأجبنه فلم يزل يحادث أهل الحى الى قرب العصر فاقبل فى ذلك الوقت رجال الحى فلم تزل تمر به الرعلة بعد الرعلة فيقفون ويسألونه ممن الرجل فينتسب فى نسب زيد فينصرفون عنه الى قرب غروب الشمس ثم أقبل عليه شيخ فانٍ على بعير هرم هزيل فسأله فانتسب لزيد فاستنكف الشيخ واستدار حوله حتى رأى وجهه وأوجس أشعب منه خيفة فبادر كب الفرس حتى قال الشيخ أقسم بالله ما هذا قرشى وما هذا الا وجه عبد فركض أشعب والشيخ فى أثره يقول من أنت فلما يئس من اللحاق به انتزع سهما فرماه به فأصاب مؤخرة السرج فكسرها وارتاع أشعب روعة أحدث لها فى الحلة فلما وافى رحل زيد غسلها ونشرها فلم ينشب زيد أن غلس من العرج ورأى ما حل بالطيب والحلة والفرس اذ رأى السفط مفضوض الخاتم والحلة مبتلة والفرس أجهده الركض ومؤخرة الرحل مكسورة فسأله فصدقه الخبر فسكت حتى وافيا المدينة فسألته سكينة عما أحدثه زوجها خلف لها أنه لم ينكر عليه شيأ ولم يمكنه من ابتياع جارية ولا من الاجتياز بالعرج فما أتم كلامه حتى مثل زيد بين يديها وقال والله يا بنت رسول الله لقد كذبك العلج أخت بها

يوما وليلة وأصبت بها عدة من جواري وها أنا تائب الى الله مما كان مني وقد جعلت أمرهن اليك وهن موفيات المدينة عشية اليوم ثم أنت أعلم بعاتري بالعبد السوء وحدثها حديثه فأخذت منه الدنانير فأنفقتها في اتخاذ بيت من أخشاب وأعواد وشراء بيض وتبن ومرجين وحلفت بجدها أن لا يخرج أشعب من ذلك البيت حتى يحضن ذلك البيض كله الى أن يفقس فكان كذلك وسميت تلك الفراريج بنات أشعب

حديث بنانة

وأما جاريتها بنانة فان سكينة لما ردت خطبة ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف تنهدت بنانة حتى كادت أضلاعها تنحط فقالت لها سكينة مالك ويلك قالت أحب أن أرى في الدار جلبة تعني العرس لحداثة سنها فأرسلت سكينة الى ابراهيم أن قد بدا لي فيما دفعتك عنه فأتت أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم فجمع من بني زهرة وأعيان قريش نحو الثمانين رجلا ثم أرسل الى علي بن الحسين وحسن بن حسن وغيرهما من بني هاشم فاجتمعوا وقالوا هذه السفيهة تريد أن تتزوج ابراهيم بن عبد الرحمن بن عوف فتنادى بنو هاشم لا يخرجن أحد الا ومعه عصا ثم نضار بوامع بني زهرة حتى شج بينهم يومئذ أكثر من مائة انسان ثم احتملها الهاشميون في كساء آخذين بزواياه الاربعة فالتفتت في هذه الحالة الى بنانة فقالت أي بنانة أرأيت في الدار جلبة قالت اي والله الا أنها شديدة

حديث الفرزدق

كان الفرزدق قد خرج حاجا فلما قضى حجه خرج الى المدينة فدخل على سكينة مسلما فقالت له من أشعر الناس قال أنا قالت كذبت أشعر منك الذي يقول

بنفسي من تجنبه عزيز * علي ومن زيارته لمام
ومن أمسي وأصبح لا أراه * ويطرقني اذا هجع النيام

فقال لئن أذنت لي لأسمعنك أحسن منه قالت لا أحب فأخرج عني ثم عاد اليها من الغد فقالت من أشعر الناس قال أنا قالت كذبت صاحبك أشعر منك تعني جريرا حيث يقول

لولا

لولا الحياء لهاجني استعبار * ولزرت قبرك والحبيب يزار
كانت اذا هجر الضجيع فراشها * كتم الحديث وعفت الاسرار
لا يلبث القرناء أن يتفرقوا * ليل يكر عليهم ونهار

فقال ان أذنت لى أسمعتك خيرا منه فأمرت به فأخرج ثم عاد اليها فى اليوم الثالث وحولها مولدات كانهن التماثيل فأعجبته احداهن فقالت سكينة من أشعر الناس قال أنا قالت كذبت صاحبك أشعر منك حيث يقول

ان العيون التى فى طرفها حور * قتلننا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به * وهن أضعف خلق الله أركانا

فقال يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان لى عليك حقا عظيما ضربت اليك من مكة ارادة السلام عليك فكان جزائى منك تكذيبي ومنعى من أن أسمعك وبى ما قد عيل معه صبرى وهذه المنايا تغدو وتروح ولعلى لا أفارق المدينة حتى أموت فاذا أنا مت فأمرى أن أدرج فى كفنى وأدفن فى ازار تلك الجارية يعنى التى أعجبته فأمرت له بها وأمرت الجوارى ان يدفعن خلفهما ثم قالت أحسن صحبتها فانى آثرتك بها على نفسى

خبرها مع الشعراء الخمسة

اجتمع فى ضيافة سكينة بنت الحسين عليهما السلام الفرزدق وجرير وكثير وجميل ونصيب فمكثوا أياما ثم أذنت لهم فدخلوا عليها فقعدت تسمع كلامهم وتراهم ولا يرونها ثم أخرجت وصيفة لها وضيئة قد روت الاشعار والاحاديث فقالت أيكم الفرزدق فقال ها أنا ذا فقالت أنت القائل

هما دلتانى من ثمانين قامة * كما انحط باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى بالارض قالتا * أحى يرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الإمراس لا يشعروا بنا * وأقبلت فى أعجاز ليل أبادره
أبادر بوابين قد وكلا بنا * وأحمر من ساج تبص مسامره

قال نعم قالت فما دعاك الى افشاء سرها وسرك هلا سترت عليك وعليها خذ هذه الالف

والحق بأهلك ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت أيكم جرير قال ها أنا ذا قالت أنت القائل

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا * وقت الزيارة فارجعي بسلام
تجري السواك على أغر كأنه * برد تحدر من متون غمام
لو كان عهدك كالذي حدثتنا * لوصلت ذاك وكان غير ذمام
اني أواصل من أردت وصاله * بحبال لا صلف ولا لوام

قال نعم قالت أفلا أخذت بيدها وقلت لها ما يقال لمثلها أنت عفيف وفيك ضعف خذ هذه الالف والحق بأهلك ثم دخلت الى مولاتها وخرجت وقالت أيكم كثير قال ها أنا ذا قالت أنت القائل

وأعجبني يا عز منك خلائق * كرام اذا عد الخلائق أربع
دنوك حتى يدفع الجاهل الصبا * ودفعك أسباب المنى حين يطمع
فوالله ما يدري كريم مماطل * أينساك اذ باعدت أو يتصدع

قال نعم قالت ملحت وشكلت خذ هذه الثلاثة الآلاف والحق بأهلك ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت أيكم نصيب فقال ها أنا ذا فقالت أنت القائل

ولولا أن يقال صبا نصيب * لقلت بنفسي النشأ الصغار
بنفسي كل مهضوم حشاها * اذا ظلمت فليس لها انتصار

فقال نعم فقالت ربيتنا صغارا ومدحتنا كبارا خذ هذه الالف والحق بأهلك ثم دخلت على مولاتها وخرجت فقالت يا جميل مولاتي تقرئك السلام وتقول لك والله ما زلت مشتاقة لرؤيتك منذ سمعت قولك

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة * بوادي القرى اني اذا لسعيد
لكل حديث بينهن بشاشة * وكل قتيل بينهن شهيد

جعلت حديثنا بشاشة وقتلانا شهداء خذ هذه الالف دينار والحق بأهلك رضي الله تعالى عنها

(خبر)

(خبر خالد)
ابن صفوان التميمي مع أمير المؤمنين أبي العباس السفاح

وذلك أن خالداً المذكور دخل على أبي العباس السفاح وليس عنده أحد فقال يا أمير المؤمنين اني والله مازلت منذ قلدك الله الخلافة أطلب أن أصير الى مثل هذا الموقف في الخلوة فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بامساك الباب فليفعل فأمر الحاجب بذلك فقال يا أمير المؤمنين اني فكرت في أمرك فلم أر أحداً له قدرة واتساع على الاستمتاع بالنساء مثلك ولا أضيق فيهن عيشاً منك انك ملكت نفسك امرأة من نساء العالمين فاقتصرت عليها فان مرضت مرضت وان غابت غبت ثم وصف له نساء العالمين بما يطول شرحه فقال له السفاح أعد على ما ذكرت فقد ملأت مسامعي بما شغل خاطري فأعاده بأحسن مما ابتدأه ثم انصرف وبقي الخليفة مفكراً اذ دخلت عليه زوجته أم سلمة وكان قد حلف لها أن لا يتخذ عليها زوجة ولا سرية ووفى لها بذلك فلما رأته على تلك الحالة قالت له اني أنكرك يا أمير المؤمنين فهل حدث شيء تكرهه قال لا فلم تزل به حتى أخبرها بمقالة خالد فقالت وما قلت لابن الفاعلة فقال لها أينصحني وتشتمينه فخرجت الى مواليها وأمرتهم بضرب خالد قال خالد وكنت قد خرجت مسروراً باقبال أمير المؤمنين ولم أشك في الصلة فبينما أنا واقف اذ أقبلوا يسألون عني فأيقنت انه أمر لي بالجائزة فقلت لهم ها أنا ذا فاستبق الى أحدهم بخشبة فغمزت برذوني فلحقني وضرب كفل البرذون فركضت وفتهم واستخفيت في منزلي أياماً ووقع في قلبي أني انما أتيت من قبل أم سلمة فبينما أنا ذات يوم جالس في المجلس فلم أشعر الا بقوم دهموني فقالوا أجب أمير المؤمنين فسبق الى قلبي أنه الموت فاسترجعت وقلت والله لم أر دم شيخ أضيع من دمي فركبت الى دار أمير المؤمنين فأصبته جالساً ولحظت في المجلس بيتاً عليه ستور رقاق وسمعت صوتاً من خلف الستر فأجلسني ثم قال ويحك يا خالد وصفت لامير المؤمنين صفة فأعدها فقلت نعم يا أمير المؤمنين أعلمتك أن العرب انما اشتقت اسم الضرة من الضرر وان أحداً يكون عنده من النساء أكثر من واحدة الا كان في ضر وتنغيص فقال السفاح لم يكن هذا كلامك أولاً قلت بلى يا أمير المؤمنين وأخبرتك أن الثلاث يدخلن على الرجل البوس ويشبن الرؤس فقال السفاح برئت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كنت

سمعت هذا منك أو مرّ في حديثك قلت بلى يا أمير المؤمنين وأخبرتك ان الأربع من النساء شرّ مجموع لصاحبهن يشيبنه ويهرمنه قال والله ماسمعت هذا منك أولا قلت بلى والله قال أتكذبني قلت أفتقتلني نعم والله يا أمير المؤمنين ان أبكار الاماء رجال لكن ليس لهن خصى قال فسمعت ضحكا من خلف الستر ثم قلت والله وأخبرتك أن عندك ريحانة قريش وأنك تطمح بعينك الى النساء والجوارى فقيل من وراء الستر صدقت والله يا عماه بهذا حدثته ولكنه غيّر حديثك ونطق بما فى خاطره عن لسانك فقال له السفاح انصرف قاتلك الله قال خالد فانسللت فبعثت الى أم سلمة بعشرة آلاف درهم وبرذون وتخت ثياب

(قلت) وقد كان أخوه أمير المؤمنين المنصور متواضعا فى أهله يمازح ويداعب ويتنزل الى درجات عقولهن فاذا اخرج الى سرير ملكه عبس قبل أن يتم خطوته وبرز فى جبينه عرق تفرق الجبابرة من النظر اليه وقد كان التواضع بين الاهل عادة الخلفاء الراشدين ومن بعدهم وهو سنة نبوية فقد صح أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا دخل بيته يكون فى مهنة أهله كما فى البخارى وقد سبق فى الباب شىء من هذا وهو مجال واسع أختمه لك بقصة عبد الله ابن رواحة الواردة فى الصحيح وحاصلها أن عبد الله بن رواحة الخزرجى سيد الشعراء كما سماه بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بصرت به زوجته وما وقد دخلا بجارية له فأخذت شفرة وقالت لو وجدتك حيث كنت لوجأتك بها فأنكر الخلوة فقالت اقرأ اذن شيأ من القرآن لان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى الجنب عن القراءة فقال

أتانا رسول الله يتلو كتابه * كما لاح مشهور من الفجر ساطع
أتى بالهدى بعد العمى فقلوبنا * به موقنات أن ما قال واقع
يبيت يجافى جنبه عن فراشه * اذا التصقت بالمشركين المضاجع

فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فضحك حتى ردّ يده على فيه وقال هذا من معاريض الكلام يغفر الله لك يا ابن رواحة ان خياركم خيركم لنسائه فأخبرنى ما الذى رددت عليك قال قالت لى أما اذا قرأت القرآن فانى أتهم ظنى وأصدقك وكانت حديثة العهد

(فصل فى احتجاب النساء وأنه واجب)

انى لست أعدم أن يقول قائل ان احتجاب النساء مجلبة للتشوق اليهن لولوع النفس بالغريب وميلها الى مالم تعهده بخلاف المبتذل المعهود فما بالك أيها الشيخ تجعل المقتضى مانعا والموجب سالبا فأقول لك أيها اللاحى ان الشريعة المطهرة مبنية على حفظ الانساب وسد الذرائع وغلق أبواب الفساد وحسم الشرور أو تقليلها بقدر الامكان ومن الجلى أو البديهى أن توقع المحذور فى جانب ربات الخدور وذوات الحجاب أبعد منه فى سواهن لوضوح الفرق بين السهل الحصول وبين ما يحتاج فى نيله الى اعمال الافكار وضروب الاحتيال وبذل المجهود وتجشم الاهوال والمخاطرة بالنفس والمال مع خوف الواشى وعذل العذول ومداراة الرقباء ومحاباة النمام ومع احتمال تشويه الذات وقبح المنظر وسوء المخبر هذا فضلا عما عسى أن يحول دون المرام من نفاد الاعمار أو نزوح الديار أو نضوب مادة الثروة الى غير ذلك من أنواع العوائق وطوارق الحدثان وأصناف الموانع المسطورة فى التواريخ والتى يشهد بها العيان هب أنه اجتاز هذه العقبات وقطع تلك المفاوز وسلك جميع المضايق وتوفرت له الاسباب وانتفت عنه الموانع فالى أن يصل الى هذا الممتنع وينال أمنيته منه يكون قد أدرك مراده من المبتذل مرارا عديدة فرعا اخضع لقول القائل

اذا لم تستطع شيأ فدعه * وجاوزه الى ما تستطيع

وبالجملة فتطرق الفساد الى المحجبات ان لم يكن ممتنعا فلا أقل من كونه أقل من تطرقه الى المبتذلات فالحجاب اذن ضرورى عقلا لذلك وهذا جواب بالتسليم أى تسليم تشوق النفس الى من لم تعهده بشخصه وان عهدته بنوعه وعدم تشوقها الى من عهدتهما معا حالة كون كل منهما ليس فى حوزتك مع كون الميل اليه والميل منه طبيعة فى النوع البشرى وغريزة فطر عليها ودعوى أن ابتذاله مانع للجميع من ذلك الميل الغريزى والخليقة الفطرية بديهية البطلان فيا هذا أنشدك الله والانصاف أليس أنك لو سألك سائل عن عمدالى نار تلظى فأدنى منها الا أقول جزل الغضى بل المرخ والعفار ماذا يستوجب أما كنت تجيبه بأنه استوجب عتبا أو اقترف ذنبا حالة كون ربات الحجاب لا يلاقين التستر قد

اعتــده واستأنس به فلا يتألمن منه ولا يستهجنــه بل صار حليــة لهن يتمدحن به ويرون التبذل من أنكر المنكرات وذلك أمنع للفساد

وبعد فابتذال الشئ انما يكون بعد طول العهد به وكثرة مشاهدته وتكرر مزاولته ونحو ذلك حتى تمله النفس ويسأمه الحس فأما النظرة الاولى مثلا فهي الى المحجبات بعد قطع تلك العقبات والحسواهن على حد سواء وأوضح من ذلك ان أقول لك ان المبتذلات قبـل العهد بهن فى معنى المحجبات من حيث الميل الى كل والمحجبات بعد العهد بهن فى معنى المبتـذلات من حيث الميل عن كل فالحجاب أو عدمه ليس هو السبب الحقيقى للميل أو عدم الميـل وانما السبب الحقيقى العهد وعدمه فكل ما عهدته النفس سئمته وكل مالم تعهده تشوقت اليه وهذا أمر مسلم لا نزاع فيه حتى قالوا الكل جديد لذة وما ملك زهـد وبذا يمتنع قولك ان الحجاب سبب للتشوق والابتذال سبب لترك التشوق

وقد تقرر ثبوت أن الوصول الى المحجبات متعذر أو متعسر بالنسبة الى المبتذلات فثبت المطلوب وهو ضرورية الحجاب من طريق العقل لمنع الفساد أو تقليـله وقد سبق لك فى باب الغـيرة بطلان كون التربية وحدها كافية لذلك فراجعه هـذا ولكم من نظرة أوجبت حسرة اللهم الا اذا أمنت الفتنة وانتفت الشهوة وعليـه حمل قول من أجاز من أئمتنا النظر الى وجه الاجنبيـة وكفيها وان الوجـه ليس بعورة فى غـير المداواة وبقيـة المستثنيات ألم تر أن رسول الله صـلى الله عليه وسـلم لفت وجه الفضـل وكان رديفه الى جهة أخرى حينما نظر الى امرأة كما فى صحيح البخارى غير أن أمن الفتنة وثوران الشهوة ممن هو مفطور عليها كالمستحيل الا فى الخواص وقليـل ماهم خصوصا فى هـذا الزمان فالاسلم اذن غلق هذا الباب ما أمكن درأ للمفاسد وصيانة للانساب اذ قد دوافيـك فى بابها أن حفظها من ضروريات الدين والملك والعمران اذ ليس فى سعة كل انسان مغالبة شهوته بالوازع العـقلى ولا بالوازع الدينى ولا بوازع الحكام اذا أبيح الابتـذال فلم يبق سـوى الحجاب حفظا للانساب

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه فلا أراك بعد ذلك تجد بدا من موافقتى على أنه لو كان أصـل الشر بعـة الغراء يبيح ذلك التبذل لكان لفساد

الزمان

الزمان داعية لمنعه بمقتضى قواعدها ولا أزال أذكرك بأن ليس جميع ما عليه المسلمون والمسلمات موافقا الدين الاسلامى فلا يهولنك ماترى من المخالفات لما تسمع فى هذه العجالة سواء فى هذا الباب أو غيره ولا أظنك تجهل ماسطره التاريخ وذكرته صحف الاخبار ولا تزال تذكره مما ترتب على عدم الاحتجاب مما تحاشى عن ذكره فلقد وافق فيه الخبر الخبر فالنزاع فيه بعد ذلك ليس من شيم الرجال وانى أحاشى عنه من دأبه الانصاف والاذعان الى الحق له أو عليه

وأظن أن قد بقى فى نفسك بقية وهى اشتراكهن مع الرجال فى الاعمال الدنيوية فأقول لك ان تبرعهن بمعاونة الازواج فى ذلك لا تحظره شريعتنا الحنيفية وله شواهد كثيرة منها أن زوجة الزبير حوارى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت معه بهذه المثابة حتى كانت تنقل النوى لعلف فرسه من مسافة بعيدة ولقد لقيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة وهو راكب فأراد أن ينيخ ليحملها على ناقته رأفة عليها وهى حاملة النوى فاستحيت من ذلك وكان منهن فى عهد النبوة وراء الجيش من يداوى الكلمى ويسقى العطاش ويجبر الكسر ويأسو الجرح بل من يباشر قتال من يجوس خلال أخبيتهن أو يطوف بها وقصة سيدنا حسان بن ثابت فى غزوة الخندق وأنه لجبنه جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ مع النساء والصبيان وكيف تمنع من قتل اليهودى الذى جعل يطيف بالحصن فقتلته صفية بنت عبد المطلب عمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعدت الحصن وقالت يا حسان انزل فاسلبه فقال مالى بسلبه من حاجة قصة مشهورة مبسوطة فى صحيح البخارى ومن كن يشتغلن بالغزل والنسج والخياطة ونحو ذلك مما يناسبهن اعانة للرجال غير أن ذلك كله لا يشترط فيه الابتذال وعدم الحجاب كما أن هذه الاعانة ليست بالواجبة عليهن فانما خلقن للدعة والراحة والحفظ والصيانة لا لاحتقارهن بل للعناية بهن كالجوهر المكنون واللؤلؤ المصون والرجال للعمل والكد والمهنة والابتذال وتجشم الصعاب واقتحام الخطوب ولذا كانوا قوامين عليهن كما فى الكتاب العزيز أما هن فحسبهن تدبير المنزل وتربية الابناء فليس عليهن جمعة ولا جماعة ولا حرب ولا ضرب الى غير ذلك وما سمعنا منذ النشأة الاولى أن سرية أو جيشا كانت كماته ربات الخدور أو ذوات القناع

واظالما أخفقت مساعى كثير من غلاة الاوروباويين فيما كانوا يرومونه من تطمهن فى سلك الوظائف العليا ومعاملتهن معاملة الرجال فى جميع الاحوال لان ذلك ضد الخلقة التى يسمونها الطبيعة • فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ولقد رفض البرلمان الانكليزى فى الوزارة الحاضرة طلب تعيينهن أعضاءً فى المقاطعات فاظنك بسواها نعم ان الديهن من حلية المحاسن ما يكون معه ماضى السيف كهاما ومسدد النبل حطاما حتى حمل أحد ملوك العرب على الرحيل عن مدينة شدد عليها الحصار فلم يبق الا الفتح صلحا أو عنوة تسورت له ابنة ملكها وكانت بارعة الجمال وقالت ألست القائل

نحن قوم تذيبنا الاعين النجل * على أننا نذيب الحديدا
وترانا يوم الكريهة فرسا * نا وفى السلم للملاح عبيدا

فقال نعم فكشفت وجهها فنادى بالرحيل فى عسكره لما بهره من جمالها غير أن ذلك انما يجدى فى معترك النسيب والغزل والتشبيب

وبعد فان هذه الحادثة أريحية عربية وشنشنة أخزمية وفرق ما بين الجد والهزل والتفريط والحزم

وبالجملة فأصدق الانباء فى حقهن عند ذوى العقول السليمة قوله تعالى أومن ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين والله تعالى يتولانا بهدايته الى سواء السبيل وانى أظن أن هذا القدر من التربية والعناية بالنساء شرعا كاف بالنسبة لهذه العجالة

أما تربية الشرقى بالتربية الافرنجية فلا نتكلم فيها بنت شفة فلقد كفانا مؤنة الكلام عليها نفس الافرنج وليس فى سعة العجالة الاتيان فيه بأكثر من تلخيص مقالة طويلة الذيل ألقاها الدكتور (جوستاف لوبون) فى اول الجلسة العامة للمؤتمر الدولى المشكل بفرانسا للبحث فى المسائل الاستعمارية حيث قال ما تعريب أصله مطبوع فى جريدة الازهر الغراء ليس من يوم الا ونسمع فيه تفرنج أهل الجزائر والاندوشين وزنج المارتنيك وتخلقهم بالاخلاق الاوروباوية ومنح هذه الجهات من القوانين ونحوها ما يماثل ما فى مديرياتنا الفرنساوية

مع أن تطلق الامة بما يخالف دينها وعاداتها وخيم العاقبة مضى على الدولة التى دبتهم هذه التربية لانها أى هذه التربية بدلا عن أن تحسن اخلاقهم فانها تحطها الى أدنى دركات الفساد

وذكر على ذلك شواهد حتى نقول اشتى عن (مونيار ونلياس) مدرس الساسكريت بمدينة أوكسفورد وعن غيره الى أن قال

فبهذه التربية يتحول الطيبون المجردون عن الايذاء المتصفون باستقامة الاخلاق الى خبثاء ماكرين شادعين أفاكين اباحيين ظلمة فسقة الخ

فقد صارت هذه الاخلاق الفاسدة من الامور القاصرة على من تربى من الشرقيين بالتربية الافرنجية الى آخر ماتحاشى عن ذكره

بل نقول بملء الفم ان أمة يوجد لديها هذا القرآن الكريم ليست البتة محتاجة الى سواه فى جميع أمورها كائنة ما كانت

ثم ان ههنا عقبة كؤدا لابد من اجتيازها ولو بقليل من الافصاح وهى أنه سبق فى المقدمة ان الذى بعث البعض على العبث بالشريعة المطهرة حتى زعم أنها قاصرة على العبادة والمعاد الى آخر ماتقدم وأنها غير صالحة لنظام الدنيا وعزانها انما هو الجهل

ونقول الآن ان منشأ هذا الجهل فى أكثر جهال المسلمين أمور شتى منها التزام الخطباء الخطابة بكلام مخصوص مسطور فى طروس لايخرج فحواه عن بيان فضل الشهور والترغيب فى الآخرة والترهيب من الموت والزهادة فى الدنيا ويذكرون أحاديث أغلبها غير صحيح ومعلوم أن الاقتصار على ذلك انما كان لامور سياسية اقتضاها عسف ملوكنا السابقين منذ عدة قرون والا فأصل الشريعة غير ذلك وليس هذا محل سرد الخطب النبوية أو خطب الخلفاء الراشدين ومن على شاكلتهم بل يكفيك منها مراجعة صحيح البخارى فى اشتراط الولاء وشأن المرأة المخزومية لينكشف لك عيانا أن الشريعة لاتحتم الاقتصار على ماذكر بل مقتضاها أن تكون الخطابة فى جميع مايختص بصلاح الامة دنيا وأخرى بحيث ان الخطيب يتخللها بالموعظة لافى خصوص الجمع والاعياد بل كلما دهمها مهم أو نابتها نائبة فى دينها أو دنياها اذ قد سبق لك أن الدنيا مطية الآخرة وأنها بالنية تكون آخرة حتى

لايكادمن هذه الحيثية أن يوجد فرق بين الدنيا والآخرة وفى الحديث الشريف الدين يسر ولن يُشَادَّ أحد الدينَ الاّغَلَبَه فاستعينوا بالغدوة وشئ من الدُلجة وأُتى قوم على رجل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه منقطع للصيام والقيام فقال من يكفيه عَلَف فرسه قالوا كُلُّنا يكفيه قال كلكم خيرمنه وقال صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة أو الآخرة للدنيا ولكن من أخذ من هذه وهذه وقد أسلفنا أكثر من ذلك .

و بالجملة فلا قوام للاعمال الصالحة بغير الدنيا فما عليك سوى اصلاح النية صادقا فتكون دنياك آخرة وعاداتك عبادات اللهم الا للنفوس البهيمية بل الأشر منها وتوضيحه أن مجرد صفة الانسانية تقتضى امتيازذويها عن البهائم من حيث الافعال أيضا بأن لا يحملهم عليها الامقاصد شرعية وهذه هى النية بعينها فأما ان كانت أفعالهم لمجرد الشهوة البحتة كالبهائم فهم لامحالة شرّ منها اذلم يستعملوا عقولهم التى امتازوابها عنها

و بهذا التقرير يسهل عليك تعقل ماورد فى الكتاب العزيز فى غير موضع من نحو قوله تعالى لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون فأصبحت العامة بسبب التزام الخطباء ماذكر أجهل خلق الله تعالى بالدين تحسبه قاصرا على ما فى تلك الخطابة فساءت دنياها وساءت أخراها الضعف هممها وفتور عزائمها واستيلاء اليأس عليها فلاجرم أن تَنْضُب ثروتها ويقل غناؤها ويتسارع اليها الفناء هذا مايسعنا ايضاحه فى هذا المقام ولابد للمصدور أن ينفث

﴿تنبيه﴾ لايحسبن قرّاء الجالة أنا نريد المنع من تقليد الاجانب فيما يعود علينا بالمنفعة كلّا فان ذلك لاتمنعه الشريعة المطهرة كيف وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق لما أخبره سلمان الفارسى بأنه من أعمال الكسرى وبين فى حروبهم وشواهد ذلك كثيرة لانطيل بذكرها . وأما النساء عند الاجانب فلم تقم لهن قائمة الى الحد الموجود الآن الافى هذا القرن الحاضر وهو القرن التاسع عشر من تاريخهم فقد اعترفوا فيه للمرأة ببعض الحقوق الاسلامية الممنوحة لها منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا

اما

أما قبل ذلك فقد بلغ بهم الاجحاف بحقوقها الى أن لم يعدوها من الآدميين ولم ينظموها فى سلك الاناسى وليس ذلك بالبعيد العهد فان أحد علمائهم ألف فى القرن السادس عشر كتابا عنوانه (هل المرأة من نوع الانسان) حتى اضطرت مدامو (زيل) الفرنساوية الى نشر رسالة تسأل فيها العالمين بهذا العنوان (هل للمرأة نفس) ذكرت فيها ان آباء الكنيسة قد تجاوزوا حد القسوة على النساء حتى ان القديس (جروم) بالغ فى حرمان المرأة من اللذائذ وأراد منعها من الخمر واللحم وأن تقتصر فى غذائها على الخضراوات وقال فى رسالة الى (لاتا) يجب أن تعيش المرأة هاربة من الحاضر جاهلة الماضى طالبة المستقبل وكان يحرم عليهن الموسيقى ويقول ان النساء لا يجوز لهن أن يشتغلن بغير الصلاة وطاعة الازواج وأول ما ألف فى تهذيبهن كتاب الشفاء لبرلاتو رلاندرى فى القرن الرابع عشر قالت وجل ما فيه منحصر فى هذه الجملة انه يجب على المرأة العاقلة الخوف والخضوع والامتثال لسيدها فى الخطا والصواب بل انهم فى القرن السادس عشر لم يزالوا على ذلك الرأى من كاثوليك وبروتستانت ومن ذوى الحرية فى الافكار فقد قال أحد اللاهوتيين اذ ذاك ان المرأة وان كانت من جنس آخر غير جنسنا لكنها ترث فى الحياة الابدية ومذهب موليرونيكول ان المرأة لا يلزمها أكثر من معرفة أمور المطبخ والمنزل وخدمة زوجها وفى تاليف مدام (دى منتنون) الملكة انه يجب تربية البنات مع عدم الالتفات الى تهذيب عقولهن وقال (فنالون) فى كتابه تهذيب البنات ان الكثير من العلم يضر بالعفة قالت وأما (رسو) الشهير فلم يخرج عن هذه الافكار ثم نقلت عباراته على طولها وهى بمعنى ما سبق ثم قالت عقيب ذلك انه ليخيل لى بسماع هذا الكلام أننى أقرأ قانون عبودية المرأة لزوجها الى أن قالت وكان أكثر رجال الثورة الفرنساوية من رجال روسو حتى ان اللائحة التى وضعها (تليران) فى التعليم كانت بهذه المثابة اهـ ملخصا من جريدة المقتطف الغراء وقد سبق لك أن بفرانسا تسعين فى المائة هجرهن الازواج قسوة عليهن وذلك فى سنة ١٨٨٩

وبالجملة فبيع الزوجات أمر معروف فى بعض أوروبا ونازلة من باع زوجته لسنتين بثمن معلوم ثم طلب ثمنا آخر فى مقابلة ثناياها الحسان بحجة أنه ذهل عنها حين البيع فابى

المشترى ذلك فرفعه البائع الى القضاة فرفضوا ذلك الطلب نازلة مشهورة وفى صحف الاخبار مذكورة

(الباب السابع)

فى حفظ الانساب وكيف يتوقف عليه نماء نوع الانسان والدين والعمران

ليس بالامر الخفى أنك أى قارئ محالتى هذه مهما أصخت باذنيك أو أبصرت بعينيك الى ما يجرى بين الناس مما تنطق به ألسنتهم أو تخطه أيديهم فانك تجد فيه الجم الغفير والعدد الكثير من الالفاظ النسبية والاسماء التى لا مسميات لها سوى ذوى القربى والاصهار والانسباء والارحام كالابوة والاخوة والخؤلة والعمومة والبنوة والجدودة خليقة فطروا عليها وشنشنة لزموها لا تكاد تخلو من ذلك محاوراتهم ولا تهمله كتبهم ولا تغفله لهجتهم حتى فى العصر الماضية والقرون الخالية تشهد بذلك أبناؤهم وتعرفه آباؤهم وأبناؤهم وما ذاك الا لأن حفظ الانساب جبلة للنوع البشرى والعالم الانسانى منذ نشأته الاولى حتى توسعوا فى هذه الالفاظ فاستعملوها فى الاجانب بضروب من المجاز وأنواع من التشبيه ليتم مراد الحق تبارك وتعالى من بقاء هذا النوع الى الوقت المعلوم فالقى الحنان فى قلوب ذوى الارحام وجعله متفاوتا بمقدار تفاوتهم فى القرب والبعد فتوفرت الاسباب فى انتظام الانساب وخلق الولد أشبه بأبيه من اليوم بالامس والخمس بالخمس والذباب بالذباب والغراب بالغراب حتى لو أبصره أجهل خلق الله تعالى بفراسة وأبعدهم عن قيافة لعلم أنه سلالته وفلذته وخلاصته لا يحتاج فيه الى مجزز المدلجى ولا الى ابن كرز الخزاعى ومن كلام الجاهلية من قل ذل وفى شعر قيس بن عاصم

انّ القداح اذا اجتمعن فرامها * بالكسر ذو حنق وبطش أيد

عزت فلم تكسر وان هى بددت * فالوهن والتكسير للمتبدد

فأرق الوالدان لينام الوليد وسغبا ليشبع وظمئا ليروى وأودع ذلك بنوع ما فى قلوب الحيوانات من أصناف العجماوات لمشاركتها له فى الجنسية ولانها مخلوقة لاجله كما أسلفنا وقدشاء بقاءه فأبقاها لاجله فرغت الناقة وبغمت الظبية ودر الضرع حتى لقد فرق

بين

بين الرغمان والارئام وبين الارئام والازرام وبين رغمات الانف وسواه وقالوا الاخير في رزمة لادرفيها وبين نغاء الظباء وبين بغامها سبحانه أعطى كل شئ خلقه ثم هدى اشتق اسم الرحم من اسمه الرحمن وقال لها أنا الرحمن وأنت الرحم من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته فكانت صلتها كالجبلة في الانسان وانحصر النسب في ثلاثة أبوة وبنوة ومصاهرة ولو أنه سبحانه ما فطر الخلائق على تلك الخلائق ولا أودع الجنان ذلك الحنان ولا وضع المقة في تلك الأفئدة لما تميز قريب عن بعيد ولا غريب عن نسيب ولوقعت الوحشة واستحكم التقاطع واشتدت النفرة وازداد الجفاء وعظمت القسوة وتفاقم الخطب وعمت الفوضى وظلت تلك المعارف نكرات فلا يلبث ذلك النوع أن يسرع اليه النفاد ويستولى عليه الفناء فلا يبقى منه أثر ولا عين تلك فائدة حفظ النسب من جهة حفظ النوع ونماء العالم الانسانى

وأما فائدته في العمران البشرى فلأنه قد وقع الاجماع على أن البنين من جملة اللذات الدنيوية بل من أعظمها وان من شأن الانسان أن يجد ويكد طول حياته ابتغاء عرض يدخره لبنيه أو زوجته أو رحمه أو ذوى قرابته ليكون لهم بعده سدادا من عوز كيلا يتركهم عالة يتكففون الناس ولا أقل من مسكن يأوون اليه فان كان المرء عقيما تعلل بالامانى وهون على نفسه الخطب وضرب لها الامثال وشغلها بتعلة الآمال وهو في خلال ذلك يدأب فيما يعقبه لمن عسى أن يخلفه وتراه يتوقى السرف ويحاذر الخطر ويتكلف الشح ان كان سخيا والجبن ان كان مقداما لئلا يفقد المال أو تزهق النفس فلا يجد عقبه ما يسد خلته ولا من يقيم أوده

وبعد فالولد مبخلة مجبنة كما في الحديث الشريف وقد وضح مما قدمنا أن البنوة تستلزم النسب فما لم يكن نسب لم تكن بنوة ولا غيرها من الالفاظ السابقة المستعملة في ذوى القربى فيكون كل انسان في الدنيا أبتر لا ناقة له فيها ولا جمل ولا زوجة له ولا ولد وهنالك يركن الى الدعة ويخلد الى الراحة ويميل الى السكون فلا يهمه الكد ولا يعنيه الكدح ولا تستفزه الحاجة التى تقول فيها الاعراب الحاجة تفتق الحيلة الى تجشم ما يعانيه لو كان له قرابة أو نسب ضعف لحق همته وفتور سكن عزيمته ويأس أضاع

الامل فأبطل العمل فلن بكد وعلى من يجد وكما علمت ان الامل قوام الدنيا وعماد عمرانها فليس من سبيل سواه لنظام هذا العالم ألا ترى أن خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم وعليهم قد جعله محيطا بالانسان احاطة السوار بالمعصم والهالة بالبدر والعقد بالنحر كما فى صحيح البخارى

وأما ضرورته للدين فهى من الوضوح بمثابة لا تحتاج لايجاز ولا اطناب ولكن لا بأس بالتنبيه على بعض فوائده فنقول منها أن تتقى المحارم فى الزواج وأن توصل الارحام وأن لا يرث أجنبى بغير حق ولانه به حسم الاحقاد وازالة الشحناء وتأليف القلوب ومحو الضغائن واطفاء نائرة الشرور ولم تزل العرب تجتذب البعداء وتتألف الاعداء بالمصاهرة حتى يرجع المنافر مؤانسا والعدو مواليا وقد يصير بالصهر بين الاثنين ألفة بين القبيلتين وموالاة بين العشيرتين

قال خالد بن يزيد بن معاوية كان أبغض خلق الله تعالى الى آل الزبير حتى تزوجت منهم أرملة فصاروا أحب خلق الله عز وجل الى وفى زوجته هذه يقول

أحب بنى العوام طرًّا لاجلها * ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا

(فان قلت) ألا ترى فى الابناء من يشتد عقوقه فيسوء أبويه وربما أفضى به ذلك الى القتل بأصله والتواريخ ملأى بذلك وعداوة القرابة تضرب بها الامثال وذلك فى الكتاب الكريم ان من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم وقد تعلم أنه ليس يتوقع من اضاعة الانساب وفوضوية العالم فوق هذه الشرور فما فائدة حفظ الانساب اذن

(قلت) على رسلك فليس بعشك فادرجى ان ذلك نزر يسير فى جانب الكثير ككراهية الابناء من ذوى الفقر المدقع والفاقة الزائدة ونحن انما نتكلم على السواد الاعظم والكثير الغالب وهو لا يقدح فيه ما ذكرت وانما الجدير بأن يتعجب منه أو يستدل علينا به أن ذلك الامر الذى تذكر مع وضوحه للعالم أجمع فلن يزيدهم الا حرصا على محبة الابناء وانقيادا الى صلة الرحم يغضبون لغضبها ويرضون لرضائها ويذبون عنها بالنفس والنفيس حتى زعم ابن خلدون أن لا قوام للملك الا بعصبية النسب بل عمم ذلك فى النبوة وان خالفه الاثر والعين خصوصا فى ممالك أوروبا سلفا وخلفا وليس يعنى هذه العجالة افاضة القول فى

ذلك

ذلك فهو مبسوط فى المواهب وذلك من آيات الله تعالى وأمارات ربوبيته

وتوضيحه أنه سبحانه وان أجرى العادة بترتب المعلولات على العلل والمسببات على الاسباب والآثار على المؤثرات عندها الا بمحض خلقه بلا تأثير شئ سواه حتى لا يكاد يتخلف شبع عن غذاء ولا رىّ عن سُقيا لكنه فى كل نوع من الاسباب وكل صنف من العلل خرق سياج العادة فى حادثة أو حوادث أو جزئية أو جزئيات فتخلف الشبع عن الغذاء والرىّ عن السُقيا والاحراق عن النار والقطع عن المُدية الى غير ذلك كيما يعذر الى الخلائق بأنه هو المؤثر وحده عند هذه الاسباب وتلك العلل وانها انما هى أمارات على حصول المسبب لا مؤثرة فيه وانها قد يترتب عليها ضد ما عهد فيها فتارة يخلق الخير من الشر والشر من الخير والضر من النفع والنفع من الضر ويكون السرور شرورا والشرور سرورا والتفاصيل موكولة اليك

ولذا كان الحق تبارك وتعالى أظهر الموجودات وأجلاها وأوضحها وأسناها وانما قصرت مع ذلك أفهام العالمين عن معرفة حقيقته لشدة ذلك الظهور قال الامام الغزالى فانك اذا أبصرت انسانا يخيط أو يكتب كانت حركة يده دليلا على حياته وليس لها الا شاهد واحد أما الحق سبحانه فجميع الكائنات شاهدة عليه اذ ليس منها ذرة الا وهى تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج الى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أولا تركيب أعضائنا وائتلاف لحومنا وعظامنا وأعصابنا وتناسب شعورنا وشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق فى الوجود شئ مدرك أو محسوس أو معقول أو حاضر أو غائب الا وهو شاهد ومُعرِّف عَظُم ظهور الحق تعالى فانبهرت العقول ودهشت عن ادراكه فان ما يقصر عن فهمه عقولنا له سببان أحدهما غموضه وخفاؤه فى نفسه ومثاله ظاهر والثانى ما يتناهى وضوحه الى حد ليس فوقه شئ كالنهار صارت شدة وضوحه سببا لعدم ادراك الخفاش اياه لانه لضعف بصره لا يرى شيئا الا اذا امتزج الضوء بالظلام فكذلك عقولنا لضعفها وانما تتميز الاشياء بضدها فان الشمس لو كانت دائمة الاشراق لا غروب لها لظننا أن لا هيئة فى الاجسام سوى ألوانها فأما الضوء فلا ندركه

وحده وبغيبوبتها أظلمت المواضع فادركنا تفرقة بين الحالين وعلمنا أن الاجسام كانت استضاءت بضوء واتصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بعدمه ولولا ذلك لعسر اطلاعنا عليه لمشاهدتنا الاجسام متشابهة غير مختلفة فى الظلام والنور مع أن النور أظهر المحسوسات اذ به تدرك كافة المحسوسات

فانظر الى ما هو ظاهر فى نفسه ومظهر لغيره كيف تصور استبهامه بسبب ظهوره لولا طروّ ضده ومن شدة الظهور الخفاء

فالله مولانا هو أظهر الامور وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهدت السموات والارضون ولبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الاشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيئين فى الدلالة فسبحان من احتجب عن البصائر والابصار باشراق نوره وشدة ظهوره وسمى نفسه الظاهر الباطن لا اله سواه اهـ

الباب الثامن فى تعدد الزوجات وفيه التسرى

ان من الطباع ما تغلب على صاحبه الشهوة فلا تحصنه المرأة الواحدة فقد تزوج المغيرة بن شعبة بثمانين امرأة أما من له اثنان وثلاث وأربع من الصحابة فمن لا يحصى

وكان الحسن بن على عليهما السلام مزواجا مطلاقا حتى تزوج أكثر من مائتى امرأة وكان يقول انى ألتمس الغنى فى كلتا الحالتين يعنى الزواج والطلاق لأن الله تعالى يقول فى الزواج ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ويقول فى الطلاق وان يتفرقا يغن الله كلا من سعته

وخطب امرأة لعبد الرحمن بن الحرث بن هشام فقيه المدينة ورئيسها فأطرق ثم رفع رأسه وقال والله ما على وجه الارض أحد أعز على منك ولكنك تعلم أن ابنتى بضعة منى يسوءنى ما يسوءها فأخاف أن تطلقها فيتغير قلبى فى محبتك فان شرطت أن لا تطلقها زوجتك فخرج الحسن وهو يقول ما أراد عبد الرحمن الا أن يجعل ابنته طوقا فى عنقى وقد نهى على عليه السلام الناس عن تزويجه وكرر ذلك فى خطبته حتى قام رجل من همدان فقال والله

يا أمير المؤمنين لنزوّجنّهم ما شاء فمن شاء أمسك ومن شاء ترك فسرّ بذلك وقال

لو كنت بوّابا على باب جنّة * لقلت لهمدان ادخلي بسلام

وأخذوا من ذلك أنّ من طعن فى حبيبه من أهل أو ولد لا ينبغى أن يوافق عليه
هذا محصّل ما عسى أن ينقم منّا المعترضون (فان قلت) لم لم يبح للمرأة أيضا تعدد الازواج
أو قضاء الوطر ممن تشتهيه وتميل اليه بل ما معنى الحجر على الناس فى شهواتهم الجبلية المركبة
فى بنيتهم الانسانية منذ النشأة الاولى (قلنا) تضييع الانساب وقد أسلفنا لك ضرورية
حفظها للدين والملك والعمران ونماء نوع الانسان هذا مع وجوب التفرقة بين البهيمية
والانسانية اذ العرض أمانة مستودعة يطالب بحفظها الشرع القويم والخيم الكريم
والعقل السليم والرحم والقرابة والفصيلة والقبيلة لما يجلبه اليهم العبث بها من وصمة
العار وتبعة الشنار واضاعة النسب فلا يسوغ خرق سياجها ولا انتهاك حرمتها
ولا استباحة حماها استنادا على كون ذلك العبث مقتضى شهوة جبلية تقضت بالاختيار
ولحرص الشريعة على صون العرض شددت فى اثبات الزنا رحمة بالانسان على ما لم توجبه فى
القتل حتى لا يكاد يثبت زنا بوجهه الشرعى لانه أشنع وصمات النوع البشرى لتلويثه
الانساب وافضائه الى أن يرثك ولد الاجنبى اذ ليس مجرد اشتهاء الشئ الجبلى مبيحا
لارتكابه فكائن من شهوة جبلية جلبت الحتف وأزهقت النفس وأولئك أمم
النهيلست وأضرابهم كم لهم من شهوات تحول دونها سطوة الحكومة مع أن منشأها
الحسد ونحوه مما هو جبلى فى النفوس البشرية
وبعد نحن يسوءه ذلك العبث فيمن يعول لم لا يسوءه فى سواهم وقد قال صلى الله عليه وسلم
وأحبّ للناس ما تحبّ لنفسك ولست أخال فى العالمين انسانا حالة كونه انسانا لا يسوءه
ذلك والا فلا كلام لنا معه وسيوافيك فى التسرى بيان أن أعمال حكام البسيطة موجه
معظمها الى الحيلولة بين الناس وبين ما يشتهون مع كون ذلك المشتهى جبليا فيهم لاستحالة
استتباب الامن وقوام النظام بدون تلك الحيلولة فانتظر وفادته
واذا قلت ألست قد أسلفت أيضا ما أودعه الله تعالى من الرحمة فى قلوب أولى الارحام فهلّا

ألصق بالرجل من اجتذبه اليه الجنان فيلحق بنسبه أو عوّل على الشبه فلا تضيع الانساب اذن (قلنا) قد أوسعت نطاق الفساد وأثرت الشرور على العالم أجمع

وأقل ذلك أن ليس على العقماء مثلا أو غيرهم من الاشرار سوى أن يتصافوا بل يتجانوا حرصا على لصيق يدعونه أو وليد يستخدمونه أو نحو ذلك مما تتحاشى عن ذكره ولا يكفي الشبه مع الاشتراك فلعله أن يكون لعرق نزعه كما في الحديث الشريف وشرّ من ذلك أن تلحقه المرأة بمن شاءت كما كان في بعض سفهاء الجاهلية وأبطله الاسلام هذا كله بعد تسليم سلب الغيرة في عموم الرجال مع وجودها في كثير من البهائم أو تسليم الفوضوية وكل ذلك ضرب من الهذيان أو مس من الشيطان أو شعبة من الجنون

وبعد فان تعدد الزوجات متفرقات بلا عدد أو أربع في عصمة واحد من الشرائع القديمة وليس هو في الشريعة الاسلامية بالامر الواجب ولا المندوب وانما هو مباح بشرط العدل بيمن والا منع قال الله تعالى فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة والمراد بالعدل هنا العدل في القسم أي المبيت والنفقة الخ لا العدل في الميل القلبي وهو المنفي في قوله تعالى ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل وهو غير مكلف به الزوج لكونه فوق الطاقة البشرية

ولقد علمت مما سبق أن المقصد الاصلي من الزواج عندنا انما هو تكثير سواد الانسان وابقاء النسل وانماء النوع وأن من قصد منه مجرد قضاء الشهوة فقد خرج عن طور الانسانية ولا يثاب عليه اذ لم يقترن بنية كما علمت أيضا أن حفظ الانساب من ضروريات ذلك المقصد الشرعي فاعلم الآن أن لا ضير في تعدد الزوجات على تلك الشريطة وذلك المقصد وهو واضح فلا نطيل بالاحتجاج عليه بل لا ضير فيه أيضا اذا قصد مجرد الشهوة

وبيان ذلك أن من الرجال من تتوفر قوته وتعظم شهوته وتشتد غلمته فلا تحصنه المرأة الواحدة فلو أنا حجرنا عليه التعدد لأفضى به الحال الى ما لا يذكر ولكان المنع له إغراء كما يقول ابن هانئ * دع عنك لومي فان اللوم اغراء * وقد دلت الحكمة الربانية على أوجه ربات الخدور براقع الحياء وأخرة الخفر فلا يسعهن أن يعتن عنته ولا أن يقصصن ما يجترئ عليه وذلك مشاهد فالنزاع فيه مكابرة في الحس وقدح في البداهة

فهذا

فهـذا وأمثاله يرخص له فى التعـدد بشرطه السابق اذ مـدار الشريعة المطهرة فى زواج الواحدة أو الأكثر على العدل حتى لو تيقن الجور حرم عليه الزواج وقد نص أئمتنا على أن أفضلية الزواج على التخلى للعبادة انما هو بالنسبة للتائق القادر على مؤنه بخلاف ما اذا فقد التوقان أو القدرة على المؤن

وبالجملة فقد تقرر أنه يباح للرجل من الزوجات أربع مجتمعات فان تفرقن فبلا عدد هذا فضـلا عن ملك اليمين كما يباح له فى الخطبة النظر الى الوجه والكفين وأنه يباح له الطلاق بشرط عدم الايذاء كما سيأتى فى بابه فليس هنالك والحالة هـذه سبب يضطره الى الفساد فاذا انضم ذلك الى ما جبـل عليه النساء من الخفر والحياء كما تقـدم كان المجموع حاسما لارتكاب الشرور فان وقع الارتكاب مع ذلك فهو لا محالة ناشئ عن غلبة البهيمية لا عن حرج فى الدين كيف وقد قال الله تعالى وما جعـل عليكم فى الدين من حرج وهكـذا ارتكاب جميع المنكرات

وبعد فقد ثبت بالاحصاء الانكليزى الاخير تأليف (بيهم) و (داكر) زيادة عدد النساء عن الرجال فى أوروبا وغيرها وهو آخر احصاء معروف الى الآن أما فى الصين ويابونيا فزيادتهن بمقدار السدس كذا قالوا ومعلوم أن سكانهم ما قدر سكان البسيطة تقريبا وأنت خبير بأن الاحصاآت المعنيـة بها الحكومات الآن وفيما سبق انما هى أمور تقريبية مبناها غالبا الحدس والتخمين اذ لا سبيل الى الحصر الحقيقى خصوصا فى الاماكن الشاسـعة ولذا تجـد بين مؤلفيها تفاوتا فاحشا ليس فى المئات والآلاف بل فى آلاف الآلاف

وقد كان ذلك الاحصاء معروفا فى الدول الاسلامية بل فى صـدر الملة فقـد أحصى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا ونساء ودونت تراجمهم وأنباؤهم بناء على هذا الاحصاء وبعد ذلك كثير وأحصى للسلطان ابن الملك الاشرف شعبان ابن الملك الناصر محمد عام خمسة عشر وثمانمائة من الهجرة الشريفة هذا فضلا عمن يتمدن أسباب العقم ويستأصل شأفة التناسل وعما اعتاده الصينيون مما يشبه وأد الجاهلية غير أنه شر منه لشموله الذكور

لانهم اذا مستهم الفاقة وأجهدهم العوز عمدوا الى قتل أبنائهم أو بناتهم بالقائهم فى البحر لايفرقون بين ذكر وأنثى وعن غير ذلك مما لايعنينا ذكره الآن

ولقد انتصر كثير من الاوروباويين لتعدد الزوجات فألفوا لذلك جملة جمعيات وجنحت اليه فى أمريكا أمة تعرف بالمورمون فأباحته وقد وقع ذلك كثيرا من ملوك دولة الرومان وبعض ملوك فرانسا كالملك (داغوبرت) الاول اذ قد جمع بين ثلاث من الزوجات وكذا (نابليون) الاول و (هنرى) الرابع طلق كل منهما زوجته وتزوج أخرى والملك (هنريكس) الثامن تزوج سبعا وقد شاهدت تماثيل الجميع بمتحفى باريز ولندن ولقد ورد فى الكتاب والسنة مايشير الى كثرة النساء آخر الزمان كما أثبتته ذلك الاحصاء ولطالما ترتب على منع التعدد كثير من المفاسد والاضرار وخلل النظام والامراض الخطرة المعتقد عدواها وسرايتها الى الزوجات حتى لقد بلغ فى فرانسا عدد الزناة من الرجال واحدا وسبعين فى المائة وعدد النساء اللاتى يهجرهن أزواجهن وتشتد فوتهم عليهن تسعين فى المائة كذا فى جرنالها الرسمى ولا ريب أن عقيلات النساء وعقلاء الحرائر يؤثرن التعدد على ذلك البلاء المبين

(وأما التسرى)

فهو أيضا من الشرائع القديمة ومنشؤه الاسترقاق الناشئ عن الجهاد وكلاهما من الشرائع القديمة ولا اخالك على غير ذكر لما أعنابه فى شأن الجهاد أثناء المقدمة اذ لم يكن عهدك به بالعهد الطويل فتحتاج باعادته الى التطويل لكننى أتبرع لك بزيادة أرجأتها الى هذا الموضع حرصا على ضم الشتيت وايثار الوضع الشئ فى محله فألق الى السمع ان هذا الانسان مجبول من أصل فطرته على حب الاثرة والميل الى المنافع الذاتية والتنافس فى ذلك والتهالك عليه جهد الاستطاعة فليس من أحد تقله الغبراء أوتظله الزرقاء الاوله من تلك المنافع الذاتية بغية يشتهيها ومنية يبتغيها وحاجة يتقاضاها ولبانة يسعى وراءها وأمل يقوده اليها لافرق فى ذلك بين شريف ووضيع ودنئ ورفيع ولا بين مليك وسوقة اللهم الا فى مطمح الانظار وبعد الهمم ومرمى العزائم وشرف المقاصد وتفاوت الرغبات لان الهموم بقدر الهمم ومعلوم أن الامة انما تتركب من هذه الآحاد فهى أيضا تحت حيطة هذه الاحكام وفى وهق تلك الامانى

وبعد فقد تقرر أن حد الفقر كثرة الحاجة فأفقر الناس من كثرت حاجاته ولذا حكم العقلاء قاطبة بان الحق سبحانه أغنى الاغنياء أجمع لعدم احتياجه لشئ ما واحتياج الكل اليه فى كل شئ قالوا والملوك اذن أشد الناس فقرا لكثرة حاجاتهم وأهميتها وهو معنى قول الصديق رضى الله تعالى عنه فى احدى خطبه ان أشقى الناس فى الدنيا والآخرة الملوك الخ ويا ليت لهذه الامانى حدا تقف عنده أو غاية تنتهى اليها أو أمدا لا تتجاوزه بل كلما نيل مطلب أعقبه آخر وما دامت النفوس مقترحة والاعضاء مجترحة فلن يملأ جوف ابن آدم الا التراب ويتوب الله على من تاب وكما علمت أن الملوك أبعد الناس همة وأكثرهم حاجة وأكرمهم عزمة وأشدهم شكيمة وأشرفهم مطلبا وأقواهم على نيل مرغوب وجلب مطلوب ودفع مرهوب لاجرم دعتهم الضرورة ومستهم الحاجة الى الموازاة فى القوى والموازنة فى العُدد والعَدد كما تقول العرب لا يفل الحديد الا الحديد ولا يدفع الشر الا بالشر ويقول زهير فى جملة ما عده أمير المؤمنين عمر رضى الله تعالى عنه بقوله أشعر الشعراء من قال ومن ومن ومن

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه * يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ويقول أبو الطيب

لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى * حتى يراق على جوانبه الدم

وقالوا رهبوت خير من رحموت أى أن تُرهَب خير من أن تُرحَم وذلك هو الحرب بعينها قوة أو فعلا فى حد ذاتها أعنى بقطع النظر عن الدينية

هذا فى عامة البشر فأما الخاصة وأريد بهم الانبياء ومن على شاكلتهم فقد استبان لك بما قدمناه مقصدهم بالجهاد وليس من ينكر أن ابتغاء الوحدة الدينية أو وحدة الاجتماع المدنى لنيل المسالمة العامة هو الباعث لجميع الدول المتمدنة والحكومات المنتظمة على شب الحروب واستعار الهيجاء وليس ذلك بالمستنكر لديهم

ولا مراء فى أن الباعث على الحرب فى الشريعة الاسلامية هو ابتغاء الاسلام أو المسالمة وهو ذلك الباعث بعينه ومن زعم انحصار سببها الدينى فى ابتغاء وحدة الدين وأن نمو الاسلام انما كان بالسيف فهو جاهل بشريعتنا أو متجاهل اذ لم يقع ذلك قط فى الملة لاهل

الكتاب ولا فى فرد واحد منهم خُيّر بين الاسلام والقتل اذ لا تبيح الشريعة ذلك قال تعالى فى القرآن الكريم بعد الامر بالقتال حتى يعطوا الجزية فالشريعة انما تحتم فيهم التخيير بين الاسلام والجزية وهما بالك الوحدتان ولا تبيح الاقدام على القتال الا بعد اليأس من الاثنتين لوضوح العناد حينئذ منعا لما يترتب عليه من الاخلال بالأمن والمسالمة العامة وهذه الجزية تشبه الرسوم المقررة الآن فى الممالك المنتظمة تُنفق فى سبيل الامن والمصالح العامة وانما روعى فى تسميتها جزية الاشتقاق كما هو الشأن فى اللسان لانها جزاء الالتزام لمن يدفعها بالأمن العمومى بحيث يكون له ما لنا وعليه ما علينا وأنت خبير بأن النوع متى آل الى ملة واحدة أو مسالمة عامة لم يكن بالضرورة موضع للحرب فالحرب اذن خوفٌ نهايته الأمن وعطب عقباه السلامة وضرر غايته النفع وشر مآله الخير أما مع الاسلام فهو حاصل قبل الامر بالجهاد

وبعد فالحروب المنتظمة الآن أحمد للنوع الانسانى من المناجل وأو بأمن الوباء بسبب تلك الآلات النارية بخلافها فى العصر الماضية فلقد كانت تحسم عوانها بمجرد اصابة رجل أو رجلين أو قتل بطل أو بطلين فضلا عن اظهارها همم الرجال واقدام الابطال لشدة الاقتراب وجهاً لوجه بخلافها الآن فان مدار الظفر فيها على كون آلات أحد الطرفين أبعد فى المرمى وأسرع فى القذف

وبالجملة ففيما سبق فى المقدمة غنا فى هذا المقام وانما نحتك هذه الزيادة لتعلم من طريق العقل أن الحرب فى ذاتها أو الجهاد أو ما شئت أن تسميها ليست البتة مما يعاب به الملوك فضلا عن الانبياء عليهم السلام فلئن كانت الحجة قد تبلغ من الوضوح مشابة يوح فقد لا تجمع فى ألد الخصم ولا حسود لئيم ولا عتل أثيم

وأنت اذا شاهدت فى ممالك أوروبا تلك الاستعدادات الحربية والتفنن فى أنواع الاسلحة وبذل غاية المجهود فى ذلك لخيل لك أن الحرب على وشك الشبوب فلا يهدأ رُوعك الا بما يهتف به الحكام وأولوا الامر فى خطبهم ومحاوراتهم بما يتضمن حفظ السلام

والقرآن الكريم ناطق بالامر باعداد ما تصله الاستطاعة من أنواع القوة لان ذلك يمنع جراءة الغير فيستتب الامن وتنقطع الاطماع فالحرب اذاً من ضروريات النظم واذا

أخفقت مساعى أحزاب السلم فى أوروبا مهما تكبدوا من العناء ولسنا نريد بالحرب سوى الحرب الحقة العادلة لكونها حماية الذمار وحفظ الاوطان وصيانة الحقوق والضن بالمنافع واباءة الضيم وقمع الاطماع كما وافقنا على ذلك كثير من ساسة أوروبا وأعيان قادتها صرحوا بذلك فى أنديتهم العمومية أما من طريق السمع ففى كتابنا العزيز يقول الله تعالى ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض وفى تفسير آية أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض مايشفى الغليل فى هذا المقام كما فى صحيح البخارى وبعد فان أنت فكرت فيما سبق لك من حقيقة الانسان وأنه بين البهيمة والملك وضح لك أنه أبدا إمّا عبد هواه وإمّا عبد مولاه ولا ثالث لهما فلم تلف والحالة هذه فوق البسيطة أحدا الا وهو فى أشراك العبودية وأوهاق الاسترقاق شاء أو أبى فليس اذا فى طاقة البشر التنصل من هذه الربقة مهما حاولوا الخلاص فالحرية المطلقة انما هى لفظ بلا معنى واسم بلا مسمى وان أبيت ذلك فقل لى ناشدتك الله تعالى أى حرية لمن لا يعيش كما يريد ثم هو مزاحم من جميع الكائنات العلويات والسفليات ليس شئ منها تحت تصرفه ولا مسخر الامره ولو فصلنا لك هذه المزاحمة لما وسعها مجلدات بل أى حرية لمن تكسره الجوعة وتطغيه الشبعة وتنقصه اللحظة وهو فى كل أموره مدبر ولقد وافيلك فى باب الطلاق ان الانسان اذا رام أن يعيش على وفق مراده فى جميع الامور فلن يعيش أبدا والعلم بذلك من الوجدانيات ويؤثر عن (بيكنسفيلد) رئيس وزراء الانكليز سابقا ما تعريبه ان الامور انما تأتى على حسب الامكان لا على حسب المرام وهو معنى قديم له نظائر كثيرة فى العربية منها * ما كل ما يتمنى المرء يدركه * وأصله فى الكتاب العزيز وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة أما ما تلهج به الغوغاء من هذه اللفظة أى لفظة الحرية فلعل مرادهم بها نوع ما من الاطلاق أى عدم الحجر فى بعض المشتهى فا آل الى عبودية الشهوة والا فما معنى ما أجمع عليه الآن عالم السياسة فى أوروبا وغيرها من أن الحق مع القوة وقبلهم يقول حبيب أبو تمام

السيف أصدق انباء من الكتب * فى حده الحد بين الجد واللعب

وأجلى من ذلك أنك لو تأملت عناية الحكام فى جميع الانام لوجدت معظمها منحصرا

فى قمع شهوات العالمين المفطورين عليها وتوضيحه ان كافة الخصومات اللاتى من شأنها ان يترافع فيها الى أولى الامر لامنشأ لها البتة سوى احدى القوتين الغضبية والشهوية المقتضيتين للانتقام والاستئثار بالمنافع وقضاء أوطار الشهوات ولا نزاع بين العقلاء فى أن كلتا القوتين المذكورتين مجبول عليها النوع الانسانى فأنت ترى أن قصارى أمر الحكام انما هو الحيلولة بالقسر بين الناس وبين شهواتهم الجبلية فمن كان له بعد ذلك طماعية فى الحرية المطلقة فى هذه الدنيا فعلى عقله العفاء لانه جدير بأن يعزى فيه بعد تمزيته فى تلك الحرية بل أحرى بأن تضرب بطمعه دون أشعب الامثال ومن هنا يستأنس بجواز التكليف بما لا يطاق وان الخلاف فى وقوعه أو عدم وقوعه وللمسئلة طويلة الذيل مبسوطة فى أصول الفقه ومع أن الحكام أشد الناس عناية بمنع الشرور وتعميم الامن فلن يستتب لهم البتة حسم مادة الفساد أمر كتبه الله تعالى على سكان هذه الدار وسبق به علمه القديم ولقد شاهدنا فى كثير من الممالك الاوروباوية اعلانات ملصقة على الجدران فى الشوارع العمومية ومنازل المسافرين مقتضاها التحذير من السرّاق وأنّى يستتب للحكام حسم هذه المادة وهم أشد الناس توقعا لاعظم الشرور وأن تصيبهم فى أنفسهم حالة كون أدنى السوقة لا يتوقع منها ما يتوقعونه ولا يهمه ما يهمهم ولذا تراهم مولعين بانواع التحرز على أنفسهم بالحرس وغيره ليأمنوا على حياتهم ثم هم بعد ذلك لا يكادون ينالون ذلك الأمن انظر الى الاباحيين فى أوروبا كيف سلبوا بعض الملوك القرار ونغصوا عليهم الحياة وكدروا صفاء عيشهم ورفهنية نعيمهم ويا ليت مطالبهم قاصرة على عرض دنيوى أو نحو ذلك بل قد تجاوزوا هذا الامر الى محاولة الفتك بالنفوس واراقة دم الملوك وبالجملة فاحتفظ على ما ذكرته لك ولا تكن أسير التقليد فتكون منغمسا فى بحر الاسترقاق من قرنك الى قدمك وأراك متى نشطت من عقال نظر الرضا ونظر السخط وعمدت الى الابصار بنظر الانصاف دون ذينك النظرين لوضح لك بالجلاء أن الحرب الحقة سواء كانت بالفعل وهى جلية أو القوة كالاستعدادات انما هى زعيمة السلم وكفيلة الامن وقسطاس العدل وحاسمة الشرور وقاطعة الاطماع لولاها أو لولا اشفاقها لاستحلت المحارم وأبيحت المآثم وانتهكت الحدود ونحست الجدود وصبغت الزرقاء بعبيط الدماء وضاعت

الحقوق

الحقوق وعم العقوق وان الامة مهما بذلت الوسع فى تلك الخصلة التى يسمونها التمدن
ونبغت فى العلوم والمعارف وضروب الصنائع ورفاهية الحضارة فلن يغنى عنها ذلك
من شئ اذا هى أغفلت اتقان الآلات الحربية ومعدات الذب والاقدام برا وبحرا أولم تكن
فى كفالة من لم يغفل ذلك كبعض الدول فى أوروبا المكفولة بغيرها من ذوى القوى غير
أن تلك الكفالة عسى أن لا تضمن استقلال المكفولة الأمد اليس بالطويل لجواز أن يطرأ
على الموازنات السياسية ما يضطر الى ذلك وانظر كيف استتب لالمانيا الظفر بفرانسا فى
الحرب الاخيرة وفكر فى أيتهما كانت آنق فى الحضارة وأرفه فى المعيشة وأوسع فى نطاق
العلوم والتمدن ليستبين لك الحال وتكون على بينة من الامر وأغرب من ذلك وأعجب
أنها أى الامة مع ذلك التمدن وتلك الحضارة لو عنيت بالآلات الحربية وعنى غيرها ممن
يكون دونها فى المدنية بل ممن يكون فى الهمجية وشظف العيش بآلات أخرى تكون
أبعد فى المرمى وأسرع فى القذف لكان الظفر لذلك الغير ضربة لازب بل متى ائتلفت
القلوب واتفقت الكلمة كان ذلك عنوان الظفر (لا يقال) ان ذلك محال من ذوى الهمجية
لتوقفه على العلوم والصنائع (لانا نقول) ان أغلب هذه الامور كانت مباديها من قبيل
الاتفاقات والصدف حتى قال بعض علمائنا ان أكثر الطبيعيات مأخذه من لعب الصبيان
(قلت) ولذلك نظائر كثيرة تعترف بها الاجانب منها أصل استعمال البخار والمطابع وغيرها
سلمنا أن النصرة فى الحروب كما يقول ابن خلدون وسبقه غيره كعبد الرحيم الفاضل والعماد
وغيرهما أشبه شئ بالصدف أى أن حقيقة الحال كما فى القرآن الكريم وما النصر الا من
عند الله لكننا نتكلم على الظاهر وتأمل نظام الجند وقيادة الجيوش كيف يقضى على
الجندى بازهاق النفس لو عمد الى الفرار أثناء المعركة حين تشب الحرب لظاها وتدير على
الابطال رحاها وقد عاين حتفه بعينيه وشاهد الموت الاحمر هاجما عليه على أنه فى ظاهر
الامر لم يقترف ذنبا ولا جنى اثما وانما حاذر ما يحاذره نفس أولى الامر الذين يقتصون منه
وينفذون عليه ذلك النظام ووراء ذلك أنه ربما كان منشأ هذه الحرب شهوة نفسانية
أو بادرة من بوادر الغضب فيراق بها من الدماء ما لا يدخل تحت حصر ولا تجد لذلك من نكير
فكيف بعد ذلك يكون لآدمى حرية فى هذه الدنيا وهو كما رأيت وسمعت ثم هو بعد ذلك

يموت قسرا او يحال بينه وبين مايشتهى على أن مجرد اتصافه بالعقل حائل بينه وبين الحرية فى نيل شهواته المتوفرة الحصول بخلاف البهيم فانه متى توفرله قضاء شهوة بادرها بلا تقيد بمكان ولا زمان ولا ستر ولا غطاء والآدمى فى خلال ذلك عرضة للحن وغرض للاحن وهدف للبلاء ومجن للشقاء وكثيرا ماتنفذ الاحكام على انسان ثم تتضح براءته فقد وقع فى أمريكا ان رجلا قضى ست عشرة سنة فى الاعمال الشاقة المستبدلة عن القتل ثم اعترف الشهود بالتزوير ففحصت الحكومة ذلك فثبتت براءته وأطلق سراحه واتهم اثنان فى فرانسا بالقتل فبالغت الحكومة فى الفحص ثم أدانت أحدهما وبرأت الآخر الذى لم يلبث أن اعترف على نفسه بالجناية وبراءة المدان وذلك شرح يطول فهل تؤمل بعد ذلك حرية مطلقة لمن كان البهيم أطلق منه سراحا وأوسع مجالا وتسمية العقل عقلا وحجرا شاهدة بذلك لان مادتيهما تدلان على القسر والمنع كما أن مادة البهيمة بضد ذلك حتى قالوا للشجاع الذى لايدرى من حيث يؤتى بهمة وانظر أسباب الانتصار الكثير حصوله فى أوروبا وقول امرئ القيس

وهل يعمن الا سعيد مخلد * قليل الهموم مايبيت بأوجال

أى وهل ينعم الا الصبى المخلد أى المقلد بالقرط والسوار اذ الاطفال من حيث رفع التكاليف عنهم كالبهائم وأظنك يثقل على سمعك أن أقول لك انه من ضروب الاسترقاق التوظف فى الحكومات أو غيرها بأية وظيفة كانت لان الموظف يشبه أن يكون كمن باع نفسه بجامكيته لرئيسه أو مخدومه فاذا اغفا أيقظه واذا سكن حركه واذا استراح أتعبه واذا أقام سفره واذا واذا واذا ومتى وطن نفسه على ذلك وأخلد الى هذه المهنة ضعفت همته وفترت عزيمته عن التعلق بأسباب أخرى للتعيش فاتخذ الخدمة حرفة لا يحسن سواها ولا يركن لغيرها وفى ذلك من الخلل والفساد ما لاتحمله هذه العجالة وبهذا الاعتبار لا أرى التوظف من مكارم الاخلاق ولا من شيم الاحرار اللهم الا فى الوظائف التى تمكن أربابها من نفع العباد واصلاح البلاد ورأب الصدع ورتق الفتق وسد الخلل بحيث لاتغل أيديهم عن المنفعة العامة والثمرة المفيدة للوطن وأهليه ولا يكون المرتب مطمح أنظارهم * وأين الثريا من يد المتناول * وبالجملة فالقول الفصل فى نفى الحرية مافى

القرآن

القرآن الكريم ان كل من فى السموات والارض الا آتى الرحمن عبدا فليكن هذا آخر عهدك بتوهم الحرية ولتكبر معى عليها أربع تكبيرات وقصارى القول أن لا حرية لمخلوق فى الحياة الدنيا الا فرق فى ذلك بين صعلوك ولا بين ملك من الملوك كل قد أخذ من المنغصات بحظه الاوفى بل ربما ضوعف الامر للملوك أضعافا لان الهموم بقدر الهمم فسبحان المنفرد بالاختيار المطلق الذى سمى نفسه القهار لا اله الا هو العزيز الجبار وقولنا على أنه فى ظاهر الامر لم يقترف ذنبا نريد به أننا لا نقصد بكلامنا هذا سوى بيان أن لا حرية لمخلوق فى الدنيا والا فالكتاب والسنة متضافران على تحريم الفرار من الزحف وأنه قرين الشرك ولرب قائل يقول قد نثلت الكنانة وأفرغت الجعبة فسماعا كما أسمعت واصغاء لما أقول كيف تستأصل أيها الشيخ شأفة الحرية وتجتث جراثيمها من عالم الامكان وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه نيم وديالبيته حتى أثر الرداء فى عنقه الشريف فهم أن يبطش به أصحابه فقال دعوه فان لصاحب الحق مقالا ثم قضاه وزاده وأن الخليفة الثانى لما استعداه الاعرابى على ولد عمرو بن العاص وذكر أنه ضربه غير مرة قائلا خذها وأنا ابن الاكرمين وان عمرا حبسه ليكتم خبره ثم أفلت من السجن استدعى الخليفة عمرا وولده وأعطى الاعرابى الدرة فى ملا من الناس وقال اضرب ابن الاكرمين فضربه حتى اشتفى ثم أمره أن يضرب عمرا فأبى فقال لو فعلت ما منعتك ثم خطب الناس خطبة قال فيها متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا وهذا أبو الحسن الشاذلى لما قال لابن مشيش كيف أصبحت قال أصبحت أشكو الى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر الاختيار والتدبير فهذا أيها الشيخ ينادى على كلامك بالنقض ويقوض مبانيه بالطول والعرض أم حسبت أن وراء ذلك حرية واليك القول الفصل الذى ليس بالهزل قوله تعالى كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين الآية الكريمة أترى أن من دان بهذه الملة السمحة لا يسعه أن يعتزى الى الحرية ويهتف بها مناديه ويقول أنا حر بملء فيه (فأقول) لا يفضض الله فاك ان لك عذرا الطول عهدك بقولنا الانسان اما عبد هواه واما عبد مولاه وما ذكرت انما هو من القسم الثانى ألا تراه صلى الله عليه وسلم يقول حينما قفل من غزاة غزاها رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر جهاد النفس

وقول ابن مشيش أشكو الى الله كاف فى الجواب لان الشكوى تنافى الحرية (نعم) ان لك أن تقول ان مثل هذه العبودية خير من الحرية هذا وقد حضت الشريعة الاسلامية على الرفق بالارقاء والاحسان اليهم بما سبق لك بعضه والكتاب والسنة مشحونان بالوصاية عليهم والرفق بهم حتى وقع الاجماع عند أئمتنا على أنه يندب عتق من ضربه سيده ضربا غير مبرح لحديث مسلم من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه أما المبرح ظلما ومثله الكى أو قطع العضو أو افساده أو نحو ذلك مما فيه مثلة فذهب كثير من الائمة الى عتق العبد جبرا على سيده ويعاقبه السلطان على فعله لحديث عمرو بن العاص فيمن جب عبده فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحسبك حديث سندر لما خصاه سيده فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال من مثل به أو أحرق بالنار فهو حر وهو مولى الله ورسوله ثم أوصى بسندر كل مسلم فلم يزل مراعى الجانب حتى اختار فى خلافة عمر الاقامة بمصر فأقطعه بها أرضا ودارا وهى المعروفة بمنية الاصبغ وهو الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان أخو عمر بن عبد العزيز ولقد بلغ من عناية الشريعة بالرقيق فى الدنيا والآخرة أن بعض الاحرار من خيار الامة تمنى أن يكون رقيقا وأن يموت فى الرق وقع ذلك من أبى هريرة كما فى صحيح مسلم وكان صلى الله عليه وسلم يأكل مع الخادم ونهى عن أن يقال عبدى أو أمتى وسماهم اخوانا حيث قال صلى الله عليه وسلم اخوانكم خولكم قد جعلهم الله فى أيديكم فمن جعل أخوه فى يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق ولو تأمل العاقل فى عناية الشارع بالرقيق وكيف تشوفه للحرية حتى لو أعتق الجزء سرى الى الكل وتشريع المكاتبة والتدبير وما فى الكتاب والسنة من الوصاية به والترغيب فى عتقه لبهره ذلك وحاصل المقام أنه قد ثبت لك من طريق العقل أن الحرب الحقة مع ما فيها من ازهاق النفوس ليست مما يعاب به الملوك فضلا عن الانبياء فالاسترقاق المترتب عليها أولى بأن لا يعاب اذا كان على وجهه الشرعى خصوصا مع عناية الشريعة المطهرة بالارقاء كما سمعت أما الآن فانا نحمد الله تعالى على أن وفق الدول لمنع الاسترقاق اذ لا تكاد تتوفر فيه الشرائط الشرعية والله سبحانه الهادى الى سواء السبيل بمنه وكرمه

(الباب التاسع فى الطلاق)

ان الله جل شانه لما نوع الخليقة الى أحوال مختلفة وصفات متباينة وأخلاق متفاوتة

واغراض

وأغراض متبيرة وكان أشدها فى ذلك النوع الانسانى لجمعه بين الاضداد كما سبق لك اذ أنه نسخة من العالم الاكبر فهو يشمو بته الجثمانية وقواه الروحانية بين البهيمة والملك كما أسلفنا ولذا أشكل أمره وعظم خطبه واشتدت عناية الحق تبارك وتعالى به ومن أجله بعثت الرسل الى آخر ما تقدم وفى اختلاف الاهواء يقول المتنبى

تخالف الناس حتى لا وفاق لهم * الا على شجب والخلف فى الشجب

والمتمنى أنصفت من نفسك ورجعت الى قوة حدسك فانك لا تكاد تجد فى العالم أجمع أن اثنين اتفقا فى جميع الاحوال أوفى الكثير منها بل قد وقع الاجماع من جميع أمم العالمين فى مشارق الارض ومغاربها أن ذلك الامر لم تتمخض به الدنيا منذ نشأتها ولا قرت به عين الزمان فى حقبة من حقبه حتى لقد عدوا الخليل الوفى والصديق الحميم والرفيق الوفيق فى عداد المحال الذى لا سبيل لنيله ولا مطمع فى حصوله فتراهم اذا ذكروا من خرافات بعض الجاهلية الغول والعنقاء أو أحاديث الكيمياء تطموه فى سلكهما كثالثة الاثافى أو بالغوا فى عزة الشئ وندرته يقولون أعز من خل وفى كما يقولون أندر من الكبريت الاحمر وأعز من بيض الأنوق وذلك عام فى جميع أنواع البشر المليين وسواهم من ذوى الاهواء والنحل ولذا أفعمت الكتب الدينية بالصبر على المكروه والحض على حسن المعاشرة واحتمال أذى الاخوان ومراعاة آداب الصحبة وحقوق الاخوة لا يتمارى فى ذلك اثنان ولا ينتطح فيه عنزان وليس ذلك فى خصوص الصداقة ونحوها بل فى جميع ما يختص بالانسان فى حياته الدنيا الا سبيل لان تكون أموره فيها على وفق المرام من كل وجه اذ ليس من الممكن أن يكون الممكن نافذ المراد فى كل ما أراد وانما ذلك للواجب وحده تقدست أسماؤه وجل ثناؤه وفيما سلف فى الحرية غناء لك فى هذا المقام فلا نطيل عليك الكلام وان أنت عدت الى قد وعسى ولعل وربما قلت لك ثانيا هذا على تسليم وجوده ضرب من الاتفاق ونوع من الصدف وشئ منهما لا يتقوم به حجة ولا ينبنى عليه كلام غاية الامر أن ذلك التباين متفاوت فى العالم فبعضه يحتمل وبعضه لا يحتمل والا فليس فى الوجود من نسمة ولا على البسيطة من نفس منفوسة الا وهى محملة أذى أو متجشمة صعبا أو متكبدة عناء أو صابرة على ضيم أو مهضومة جانبا أو مسومة خسفا أو منغصة بجفاء

أوشارقة بصدودمن خصوص الصحبة سواء كانت لحبيب أوقريب أوصديق أوغريب أوترب أوسرب أوصنو أوصحب أورفيق أونسيب مختلفا ذلك فى الكم والكيف كل بما يناسبه ليتم النظام ويتقوم أمر هذه الدنيا فليس اذا فى اباحة الطلاق فى الملة الاسلامية سوى الصراط السوى والعدل الصراح والرفق بالزوجين والرحمة لكلا الصاحبين فضلا عما يترتب على اباحته من درء مفاسد وحسم أضرار ومنع شرور ووقع آثام جلى أمرها عن الايضاح غنى عن الشرح والبيان يمنعنا من ذكرها الحيا وهى فى التواريخ مسطورة وفى صحف الاخبار الى الآن منشورة لان حظره اباحة لذلك فى المعنى وحسبك بما يترتب على تكليف اثنين من شأنهما أن يجتمعا ولا يفترقا ويتفقا ولا يختلفا وأن يشاء أحدهما ما يشاء الآخر ويأبى ما يأباه ويحزن لحزنه ويأنق لانقه بأنهما مهما تباينا فى الاخلاق واختلفا فى الوفاق واستحكمت بينهما البغضاء والشقاق وظل سلب أحدهما عند الآخر ايجابا وخطؤه صوابا وضده مثيلا وحقيره جليلا وعرضه جوهرا وأرنبه قسورا الى آخر الاضداد والنقائض بحيث اشتدت بينهما الازمات وطرأ ما لا يحتمل فلا مساغ لاحدهما فى الخلاص ولا تنصل له من هذه الربقة ولا فكاك له من هذا الاسترقاق ولا فداء من ذلك الاسر وكأنى بك تقول ان اختبار أخلاق العرس قبل البناء بها مقوض لما بنيت اذ ليس من يحظر الطلاق بالذى يقدم على الزواج جزافا قبل طول التجارب وكثرة الاختبار وزيادة المعاشرة وسبر الاخلاق والآداب فأقول لك اللهم غفرا ان الاخلاق يعتريها التغيير كما هو مقرر معلوم هذا على فرض أنها أصلية وليست تخلقية للترغيب أو تكلفية للاستمالة هب أنها أصلية وأنها لا تتغير وكذب الشاعر العربى فى قوله * ومن ذا الذى يا عز لا يتغير * فأنى لك بالامور الطارئة والحوادث الطارقة والاعراض البشرية على البنية الانسانية اللهم الا اذا صح مقام الصبر والشكر كما قالت الاعرابية للاصمعى وقد أنكر عليها مقامها مع زوج مشوه وهى فى رونق الجمال وريعان الشباب ونضرة الحسن ياهذا اسكت فقد أسأت فى القول لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلنى ثوابه أو لعلى أسأت فيما بينى وبين خالقى فجعله عقوبتى أفلا أرضى بما رضى الله تعالى فأسكتته (فان قلت) أليس فى كون العصمة بيد الرجل جبر

على

على المرأة لو أساء عشرتها خصوصا بما لا يمكن اثباته فلربما تمتد الاضرار فى الاضرار بكى لا يثبت عليه عند الحاكم فهلا جعلت العصمة بيدها على أنها انما تتم حرية الطرفين لو كان فصم هذه العروة مباحا لكل منهما متى شاء فهنالك يتم ما تدعيه أيها الشيخ من سنة العدل والصراط السوى (فالجواب) أنك بنيت على غير أساس فهب أن الله تعالى لم يشرع شيأ فى شأن العصمة وأن قد وكل اليك أمرها أكنت تجعلها بيد المرأة أصالة أو تجعل لها فيها نصيبا حالة كون غريزة العقل فيك تناديك بأن الرجل أسكن جاشا وأثبت جنانا وأملك لنفسه وأضبط لبوادر غضبه والا لم يكن معنى لرجوليته بل ولا وجه لانسانيته اللهم الا اذا محضها هو لغيره وأما اضراره بها سرا فلا يقدح فى الشريعة المطهرة الا لو أمرت به وقد أسمعتك بعض أوامرها فى الرفق بالزوجة والوصاة عليها فليس والحالة هذه فى الشريعة من حرج وانما الحرج فى مخالفتها وهذا عام لغير هذه النازلة من أمور كثيرة يحسبها الجاهل حرجا فى الدين ككون شاهديك قاتليك مع امكان التزوير وككون النساء أمينات على أرحامهن يصدقن فى دعوى الحل الى أجله المحدود مع احتمال أن يكن فى الواقع كاذبات تعمدن كتمان الحيض تطويلا لمدة العدة لتكليف الزوج بنفقتها حالة كون الشريعة آمرة بأن لا يشهد الشاهد الا على مثل الشمس فى الوضوح والجلاء مفعمة بالنهى عن الزور والكذب متوعدة على ذلك أشد الوعيد قال تعالى ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن أى من حيض أو حمل وليست هذه الدنيا محل كشف الاسرار ولا وضوح ما أضمرته القلوب وأكنته السرائر لان الاحكام مبنية على الظواهر التى تقف عليها الحكام لا على جميع الظواهر وبيان ذلك ان أشد الحكام سطوة وأمنعهم قوة وأقواهم منعة وأكثرهم عدة وعددا لو حاول الوقوف على جميع الظواهر المنكرة التى تقع فى المملكة من دون أن تفوته منها جزئية واحدة لكان طالبا للمحال حتى لو وسعه أن يقرن بكل واحد من الامة واحدا من أعوانه أو رجال شرطته يلزمه ملازمة العرض للجوهر والقلادة للنحر فى حله وترحاله ونومه ويقظته وحلاله وحرمه وفى جميع أوقاته ليراقب أعماله ويضبط أفعاله وأقواله لكان ما يخفى عليه أكثر مما يظهر وذلك لكونه كالمراقب عرضة للعوارض البشرية والحوادث العادية يغفل وينام ويخطئ ويصيب ويمرض

ويصح ويذهل وينسى ويموت ويحيا ثم هو بعد ذلك يجوز استمالته بعرض دنيوي أو شهوة نفسانية الخ فيكتم الحقائق ويشاركك في الآثام أو يجعلها محاسن وورا ذلك أن كثيرا من الاحكام التي تصدرها الحكام فيما يقفون عليه من تلك الظواهر قد يكون على غير جان عن لم يقترف ذنبا ولا ارتكب جرما مع شدة تحري الحكام في طلب الحق وتوخي العدل فتنفذ الاحكام على البرآء والمقترفون في رغد عيشهم وترف حياتهم حتى لو أنك حلت قول المعري خفف الوطء ما أرى ترب هذى الأرض الا من هذه الاجساد

على ما بلي من جسوم أولئك البرآء لم تكن مغاليا وهذا الامر لا تخلو منه أمة من الامم ولا دولة من الدول وقد سبق لك في الحرية طرف مما وقع منه بباريس وأمريكا واذا تأملت في ذلك منصفا وضح لك بأجلى بيان ان الدين ضروري للملك لانه يمنع من المآثم ما لا يمكن الحكام منعه ان لم يكن كلا فبعضا وبالجملة فسطوة الحكام ليست وحدها كافية لمنع الشرور والآثام بل لا بد معها من الدين أو ما يعبر عنه البعض بالشرف والذمة لانها باعتبار كونه من مكارم الاخلاق التي جاءت بها الشرائع السماوية راجع الى الدين والقسطاس في ذلك أن الرعية رجلان رجل آنس من نفسه أنه لا يمنعه من السرقة مثلا سوى خوف الحاكم بمعنى أنه لو استتبت له غنيمة باردة حيث لا توجس خيفة العسس ولا عين الشرطة ولا غير ذلك لكان يقدم عليها مثله لا يمنعه عن ارتكاب الشرور الا سطوة الحاكم ورجل آنس من نفسه الانفة من ذلك عند الامن والخوف على حد سواء فمثله انما يمنعه الدين فلو أن جميع أفراد الرعية من قبيل الرجل الاول لم يبق في الوجود شيء الا وهو مسروق وكذا بقية أنواع الآثام انما على مرتكبيها سوى بذل المجهود في اخفائها عن أولي الامر وعيون الشرطة وأعوان الحكومة بأي نوع كان وليست الحكام بالتي تعلم السرائر ولا ما أكنته الضمائر بل ولا تعلم جميع الظواهر وقد علمت أن أحكامها فيما وقفت عليه من تلك الظواهر بالمثابة التي سمعت فقد تبقي المجرم المسيء وتؤاخذ بجرمه البريء مع تحريها العدل جهد استطاعتها فلم يكن لك بد والحالة هذه من الاذعان بالجزاء الاخروي والبعث الجثماني من طريق العقل يوم تبلى السرائر وتنكشف الضمائر وتهتك الاستار وتتضح الاسرار وتظهر الحقائق على وجهها يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم

بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة الآيات الكريمة وبعد فالطلاق فى الاسلام ليس بالواجب بل ولا المندوب بل ولا الحلال البحت لانه أبغض الحلال الى الله كما فى الحديث الشريف وانما شرع رحمة بالنوع البشرى أن يلم به ما ذكرنا ولسان الشريعة المطهرة ناطق بأن لاضرر ولاضرار وفى الكتاب العزيز فامساك بمعروف أو تسريح باحسان حتى جاز تفويض الطلاق للمرأة وجعل أمرها بيدها بل اشتراطه فى صلب العقد من جهتها ابتداء فتطلق نفسها متى شاءت وكيف شاءت أو يطلقها وليها أو وكيلها كذلك اذا اشترط أن أمرها بيده ويرخص للحاكم التطليق على الزوج فى مسائل وهنالك رد بعيوب مقرر ذلك كله فى الشريعة الغراء بأجلى بيان بل قد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لانفارق المرأة الا بالموت أمر ندب ففى الحديث الشريف ان الله يوصيكم بالنساء خيرا كرره ثلاثا فانهن أمهاتكم وبناتكم وخالاتكم ان الرجل من أهل الكتاب يتزوج المرأة وما تعلق يداها الخيط فما يرغب واحد منهما عن صاحبه حتى يموتا قال المناوى يعنى أن أهل الكتاب يتزوج أحدهم المرأة الفقيرة جدا فيصبر عليها ولا يفارقها الا بالموت فافعلوا ذلك ندبا اه وقد ورد أن المراد بعذاب النار المرأة السوء بمعنى أن الصبر على أذاها فداء من ذلك والاخبار عن خيار الامة فى الصبر عليهن لا يحتمل تفصيلها هذه العجالة وبالجملة فلاضرر ولاضرار ولا جبر على الزوجة ولا استرقاق بوجه الاطلاق كما يتوهمه بعض الجهال فى الطلاق ولو سلمناه فالجبر على الواحد ليس كالجبر على الاثنين وكونه فى الاصل بيد الزوج معقول اذ لا أقل من أنه أى الرجل أكثر ثباتا من المرأة كما بسطناه ذلك هذا لسان شريعتنا وقد اعتبره من حذا حذوها فى اباحة الطلاق من أمم أوروبا كالبرتستانت والارثوذكس حيثما حلوا وكالكاثوليك فى فرانسا خاصة أما فى ايتاليا فهو على وشك الاباحة وقد بلغ عدده فى فرانسا كما فى جورنالها الرسمى سبعة عشر ألفا ومائة وسبعة وسبعين منذ أربع أى فى مدة خمس سنين غايتها عام ثمان وثمانين وثمانمائة مسيحية فأراك بعد ذلك لا يسعك أن ترى أو تخال أن فى الطلاق على وجهه الشرعى فى الاسلام عسفا بالنساء أو قسوة عليهن ولا أن يعزب عنك ما سبق من ان الشريعة شيء والعمل بها شيء آخر ❁ واليك نبذة مما يتعلق بالطلاق فى الشريعة

الاسلامية كيما تزداد بها رشدا قال الغزالى ان الطلاق وان كان مباحا الا انه أبغض المباحات الى الله تعالى وانما يكون مباحا اذا لم يكن فيه ايذاء بالباطل ومهما طلقها فقد آذاها ولا يباح اذاية الغير الا بجناية من جانبها او ضرورة من جانبه قال الله تعالى فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا أى لا تطلبوا حيلة للفراق فان كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين فليطلقها قال ابن مسعود فى قوله تعالى ولا يخرجن الا أن يأتين بفاحشة مبينة مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهى فاحشة وليكن طلاقها فى طهر لم يقاربها فيه ويحرم بحيض لئلا يؤذيها بتطويل العدة وليقتصر على طلقة واحدة لانها تفيد المقصود قابلة للرجعة ولو بالعقد بعد انقضاء العدة وأن يتلطف فى التعلل بتطليقها من غير تعسف ولا استخفاف وأن يطيب قلبها بهدية على سبيل الامتاع والجبر فانظر الى الرفق بهن حتى فى الفراق وقد كانت حالة السلف وفق ذلك وما شابهه مما لم نذكره اذ لم يتعلق غرضنا فى هذه العجالة الا بالالماع الى نزر يسير من كل طرف على سبيل النموذج وكانت نساؤهم على شاكلتهم فقد كان الرجل اذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته اتق الله ولا تكسبن الا من حلال فانا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار كما سبق لك شرحه وبيان ما يترتب عليه من دعائم السياسة ونظام الممالك ❊ وهم أحدهم بالسفر فقال جيرانه لزوجته لم ترضين بسفره ولم يدع لك نفقة فقالت زوجى منذ عرفته عرفته اكالا وما عرفته رزاقا ولى رب رزاق يذهب الاكال ويبقى الرزاق ❊ وخطبت رابعة بنت اسمعيل أحمد بن أبى الحوارى فكره ذلك لما كان فيه من العبادة وقال لها والله مالى همة فى النساء لشغلى بحالى فقالت انى أشغل بحالى منك ومالى شهوة ولكنى ورثت مالا جزيلا من زوجى فاردت أن تنفقه على اخوانك وأعرف بك الصالحين فيكون لى طريقا الى الله عز وجل فقال حتى أستأذن أستاذى فرجع الى أبى سليمان الدارانى قال وكان ينهانى عن التزوج ويقول ما تزوج أحد من أصحابنا الا تغير فلما سمع كلامها قال تزوج بها فانها ولية لله تعالى هذا كلام الصديقين قال فتزوجتها فكان فى منزلنا كن من جص ففنى من غسل أيدى المستعجلين للخروج بعد الاكل فضلا عما غسل بالاشنان قال وتزوجت عليها ثلاث نسوة فكانت تطعمنى الطيبات وتطيبنى وتقول اذهب بنشاطك وقوتك الى زوجاتك وكانت رابعة هذه تشبه فى أهل الشام برابعة

العدوية في البصرة هذا وان من حق المرأة على والديها تعليمها حسن المعاشرة وآداب صحبة الزوج • ولقد قالت أسماء بنت خارجة الفزاري لابنتها عند التزوج انك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت الى فراش لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فكوني له أرضا يكن لك سماء وكوني له مهادا يكن لك عمادا وكوني له أمة يكن لك عبدا لا تلحي به فيقلاك ولا تباعدي عنه فينساك ان دنا منك فاقربي منه وان نأى فابعدي عنه واحفظي أنفه وسمعه وعينه فلا يشمن منك الا طيبا ولا يسمع الا حسنا ولا ينظر الا جميلا فأنصف يرحمك الله تعالى لترى أن واجبات التربية وآداب الزوجية والمعاشرة للبعل مهما بلغت التآليف فيها من المجلدات لا تخرج عن هذه الكلمات • وكان خيار الامة يعرضون بناتهم على من يعلمون صلاحه فعل ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من خيار الخلف كسعيد بن المسيب مع ابنته السابق ذكرها ۞ حدث عبد الله بن وداعة قال كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياما فلما أتيته قال أين كنت قلت توفيت أهلي فاشتغلت بها قال هلا أخبرتنا فشهدناها ثم أردت أن أقوم فقال هل استحدثت امرأة قلت يرحمك الله تعالى ومن يزوجني وما أملك الا درهمين أو ثلاثة قال أنا قلت وتفعل قال نعم فحمد الله تعالى وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وزوجني على ذلك قال فقمت وما أدري ما أصنع من الفرح فقمت الى منزلي وجعلت أفكر ممن آخذ وممن أستدين فصليت المغرب وانصرفت الى منزلي فأسرجت وكنت صائما فقدمت عشائي لأفطر وكان خبزا وزيتا واذا بابي يقرع فقلت من هذا قال سعيد فأفكرت في كل انسان اسمه سعيد الا سعيد بن المسيب وذلك انه لم يرأربعين سنة الا بين داره والمسجد قال فخرجت اليه واذا به سعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له فقلت يا أبا محمد لو أرسلت الي لأتيتك قال لا أنت أحق أن أسعى اليك فقلت فيم تأمر قال انك كنت رجلا عزبا فتزوجت فكرهت أن أبيتك الليلة وحدك وهذه امرأتك واذا هي قائمة خلفه في طوله ثم أخذ بيدها ودفعها في الباب ورده فسقطت المرأة من الحياء فاستوثقت من الباب ثم تقدمت الى القصعة التي فيها الخبز والزيت فوضعتها في ظل السراج لكيلا تراه ثم صعدت السطح فرميت الجيران فجاؤني وقالوا ما شأنك قلت ويحكم زوجني سعيد بن المسيب ابنته اليوم وقد جاء بها الليلة على غفلة فقالوا أوسعيد زوجك قلت نعم قالوا

وهى فى الدار قلت ثم فنزلوا اليها وبلغ ذلك أمى فقالت وجهى من وجهك حرام ان أنت مسستها قبل أن أصلحها الى ثلاثة أيام قال فاقمت ثلاثا ثم دخلت بها فاذا هى من أجمل النساء وأحفظ الناس لكتاب الله تعالى وأعلمهم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأعرفهم بحق الزوج أى وهى التى قالت لزوجها المذكور لما أراد الانصراف الى درس أبيها اجلس أعلمك علم سعيد كما تقدم قال فمكثت شهرا لا يأتينى سعيد ولا آتيه فلما كان بعد الشهر أتيته وهو فى حلقته فسلمت عليه فرد على السلام ولم يكلمنى حتى تفرق الناس من المجلس فقال ما حال ذلك الانسان قلت بخير يا أبا محمد على ما يحب الصديق ويكره العدو قال ان رأيت منه أمرا فاذنه فانصرفت الى منزلى فوجه الى بعشرين ألف درهم وكانت بنت سعيد هذه قد خطبها منه عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد فأبى سعيد ذلك فحقد عليه عبد الملك الى آخر ما بسط فى محله ثم أقول لجرير النوكى قبل بيت همام الفرزدق

وأبناء قومى فى المكارم جمة * تصيخ لها بين الكرام المسامع

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم * اذا جمعتنا يا جرير المجامع

(الباب العاشر)

أذكر لك فيه بالايجاز بعض من نبغ منهن فى العلوم وأحرز قصب السبق فى المنطوق والمفهوم وأخذ عنه جهابذة الرجال من العلماء الاعلام

قد سبق لك أن طلب العلم مشترك الوجوب بين الرجال والنساء وبناء على هذا الاصل الدينى قد طالما برع منهن كرائم أربين فى العلوم على ذوى العمائم وتواريخ الامة عابقة بعبيرهن ذكرا زاهية بأخبارهن زهرا بل قد خصهن بعض أئمتنا بالتأليف وبعضهم خصص به المحدثات منهن وبعض كذلك لكن بوجه مخصوص التزمه كصاحب مسند النساء وهو مجلد ضخم التزم فيه مؤلفه ذكر الاحاديث التى روتها امرأة عن امرأة من غير أن يكون فى سندها رجل الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك أما نوابغهن فى الادب والشعر والانشاء وسرعة البديهة فهو بلا ارتياب عديد التراب أو قطر الغمائم أو زهر الكمائم حدث الجاحظ عن ابراهيم بن السندى قال كانت تصير الى هاشمية جارية حمدونة فى حاجات صاحبتها فاجمع نفسى لها وأطرد الخواطر عن فكرى وأحضر ذهنى

جهدى خوفا من أن تورد على ما لا أفهمه لبعد غورها واقتدارها على أن تجرى على لسانها ما فى قلبها وكذلك ما يؤثر عن خالصة وعتبة جاريتى ريطة بنت أبى العباس واستذكارك ترجمة واحدة من أولئك لشهرة ذلك وانما أذكرك خصوص البعض ممن عنونت به الباب لتقيس الغائب بالشاهد والحاضر بالباد ان كان للقياس مجال أو الى التشبيه سبيل أما فى عهد النبوة فحدث عن البحر ولا حرج اذ كان النساء وقتئذ فضلا عن حفظهن القرآن الكريم أو ما تيسر منه على الوجه الذى أسلفته لك يستنبطن الاحكام من الكتاب والسنة ولو درست أصول الشريعة المطهرة لعلمت أن لفظة الاستنباط وان خفت على اللسان فقد طاشت بها عقول أكثر العقلاء عند الموازنة بقسطاس الحق حتى عد ذلك الصحابى تلا وقمن شذت عنها جزئية منه عدما بحتا حيث لعن بحضرتها الواصلات أى الذين يصلن شعرهن بشعر آخر يسميه عامة مصر الآن بالشعر العيرة وقال مالى لا ألعن من لعن رسول الله وهو ملعون فى كتاب الله فقالت لقد قرأت ما بين الدفتين فلم أجده فقال ان كنت قرأتيه فقد وجدتيه ثم تلا قوله تعالى وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واثبات ياء وجدتيه وما قبلها لغة وقعت فى احدى طرق البخارى وحسبك ان عائشة أم المؤمنين قد صح فى شأنها خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء وقد علمت سابقا ما هو الدين أى الشريعة الاسلامية ﴿فائدة﴾ الحميراء تصغير حمراء والاحمر والابيض ضد وبه فسر أئمة اللغة هذه اللفظة فى الحديث الشريف لان العرب اذا قالت فلانة بيضاء وفلان أبيض فانما يعنون الكرم فى الاخلاق والطهارة فى الاعراق والنقاء من العيوب فاذا عنوا بياض اللون قالوا فلان أحمر وفلانة حمراء وقال شمر عن أبى عمرو بن العلاء الاحمر الابيض تطيرا بالبرص اه وكذا كن فى العلوم فى القرون الثلاثة التى شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخيريتها كما سبق لك شئ منه ثم تدرجن فى مهاوى الحضيض الى ما ترى واليك الوفاء بما وعدنا فأقول (١) كريمة بنت محمد بن حاتم المروزية جاورت بمكة المكرمة وروت صحيح البخارى عن الكشميهنى وروايتها من أصح روايات البخارى وروت عن زاهر السرخسى وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها وهى فى الفهم والنباهة وحدة الذهن بحيث ترحل اليها أفاضل العلماء توفيت عام أربعمائة

وثلاثمائة وستين ولم تتزوج قط و بلغ عمرها مائة سنة (٢) تقية بنت أبي الفرج ذكرها الحافظ السلفي في تعليقه وأثنى عليها وأخذت عنه العلم بثغر الاسكندرية وفاقت الرجال فيه ولها زيادة على ذلك الباع الاطول في الشعر والادب ولطائفها الادبية سمع الحافظ المذكور كثيرة منها أنه كان مارا بمنزلها فعثر فجرح باطن قدمه فقطعت جارية من الدار قطعة من خمارها وعصبت قدمه بها فانشأت تقية تقول

لو وجدت السبيل جدت بخدي * عوضا عن خمار تلك الوليدة

كيف لي ان أقبل اليوم رجلا * سلكت دهرها الطريق الحميدة

ومن غرائبها في الادب أنها مدحت الملك المظفر ابن أخي السلطان صلاح الدين بقصيدة خمرية فقال مازحا أتعرف الشيخة هذه الاحوال من صباها فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية وصفت فيها الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف وبعثتها اليه وقالت علمي بهذا كعلمي بذاك وهي في القرن السادس (٣) زينب بنت أبي القاسم كانت فاضلة عالمة أدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية واجازة فممن أخذت عنهم أبو محمد اسمعيل بن أبي القاسم النيسابوري القاري وأبو المظفر عبد المنعم بن عبد الكريم بن هوازن القشيري صاحب الرسالة القشيرية وممن أجازها الحافظ أبو الحسن عبد الغافر بن اسمعيل الفارسي والعلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري مؤلف الكشاف وممن أجازتهم من أكابر العلماء العلامة المؤرخ شهاب الدين قاضي القضاة ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور وهي في القرن السابع (٤) شهدة الكاتبة فخر النساء بنت أبي نصر أحمد بن الفرج بن عمر الابري الدينورية البغدادية كانت من العلماء الاكابر وكتبت الخط الجيد وأخذ عنها العلم خلق كثيرون وكان لها السند العالي ألحقت فيه الاصاغر بالاكابر سمعت من أبي الخطاب الطبراني وفخر الاسلام الشاشي وغيرهما من أفاضل العلماء وكانت وفاتها ببغداد عام خمسمائة وأربعة وسبعين (٥) زينب بنت عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية الحنبلية بنت أخي الشيخ تقي الدين قال الحافظ بن حجر سمعت من الحجار وغيره وحدثت وانتفع الناس بعلمها وقال أيضا ولي منها اجازة (٦) زينب بنت محمد بن عثمان بن عبد الرحمن الدمشقية يعرف أبوها بابن العصيدة حدثت بالاجازة العامة عن فخر الدين بن البخاري وغيره ومن

تلامذتها

تلامذتها الحافظ ابن حجر وله منها اجازة وجاوزت أكثر من عشرومائة سنة (٧) زينب بنت عثمان بن محمد بن لؤلؤ الدمشقية كانت من أفاضل العلماء ولها اليد الطولى فى علوم السنة سمعت من الحافظ الحجّار وأخذ منها الحافظ ابن حجر اجازة وتوفيت سنة ثمانمائة (٨) رقية بنت العفيف عبد السلام بن محمد بن مزروع المدنية حدّثت بالاجازة عن شيوخ مصر والشام كابن سيد الناس من المصريين والمزّى وغيره من الشاميين (٩) عائشة بنت على ابن محمد بن عبد الغنى بن منصور الدمشقية سمعت مع زوجها الحافظ نجم الدين الحسنى من الامام ابن الخباز والمرداوى ومن بعدهما وحدثت وانتفع الناس بمعارفها (١٠) عائشة بنت محمد بن عبد الهادى بن عبد الحميد بن عبد الهادى بن يوسف بن محمد بن قدامة المقدسى الصالحية الحنبلية سيدة المحدثين بدمشق سمعت صحيح البخارى على حافظ العصر المعروف بالحجّار وروى عنها الحافظ ابن حجر وقرأ عليها كتبا عديدة وانفردت فى آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة فى تعليم العلوم لينة الجانب للمتعلمين ومن العجائب أن ستّ الوزراء كانت آخر من حدّث عن ابن الزبيدى بالسماع ثم كانت عائشة آخر من حدّث عن صاحبه الحجّار بالسماع أيضا وبين وفاتيهما مائة سنة توفيت عائشة هذه بدمشق سنة ٨١٦ ودفنت بالصالحية (١١) عائذة المدنية أم ولد حبيب بن الوليد المروانى كانت جارية سوداء حالكة اللون تروى عن الامام مالك بن أنس امام دار الهجرة وغيره من علماء المدينة المنورة وهبها محمد بن يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان لحبيب بن الوليد المروانى فقدم بها الى الاندلس وقد أعجب بعلمها وفهمها وفرط ذكائها واتخذها الفراشة (١٢) فضل المدنية اشتراها الامير عبد الرحمن الداخل صاحب الاندلس مع جوار غيرها وجعل لهن دارا بالقصر كانت تعرف بدار المدنيات وكانت فضل هذه قد برعت فى أنواع العلوم وأخذت بجامع الفنون (١٣) أم السعد بنت عصام الحميرى من أهل قرطبة تعرف بسعدونة روت عن أبيها وجدها وغيرهما وأنشدت لنفسها فى تمثال نعل النبى صلى الله عليه وسلم تكملة لقول غيرها

سألثم التمثال ان لم أجد * للثم نعل المصطفى من سبيل

ماصورته لعلنى أحظى بتقبيله * فى جنة الفردوس أسنى مقيل

في ظل طوبى ساكنا آمنا * أسقى بأكواب من السلسبيل
وأمسح القلب به غسله * يسكن ما جاش به من غليل
فطالما استشفيت بأطلالكم * يهواه أهل الحب في كل جيل

(١٤) العروضية مولاة عبد الرحمن بن غلبون أخذت عن مولاها النحو واللغة لكنها فاقته في ذلك وكانت تحفظ كامل المبرد ونوادر القالي وتشرحهما قال أبو داود سليمان بن الحاج قرأت عليها الكتابين وأخذت عنها العروض توفيت سنة ٤٥٠ (١٥) العبادية جارية المعتضد عباد والد المعتمد كانت المسئلة في اللغة تطرح بين علماء اشبيلية وهم ماهم من اللغة العربية فلا يجيب عنها سواها قال ابن عليم في شرح أدب الكاتب لابن قتيبة عند ذكر الموسعة وهي خشبة بين حمالين يجعل كل واحد منهما طرفها على عنقه تسهيلا للحمل مانصه وبذكر الموسعة أغريت جارية المعتضد على علماء اشبيلية بالغرمة التي تظهر في أذقان بعض الاحداث وتعترى بعضهم في الخدين عند الضحك وأما التي في الذقن فهي النونة وأما التي في الخدين عند الضحك فهي الفحصة فما كان في ذلك الوقت باشبيلية ممن عرف منها واحدة اه ولنكتف بذلك ولقد وقفت على مجلد ينيف على الستين كراسة في مناسك الحج على المذاهب الاربعة لمؤلفته العالمة الكاملة الست زينب بنت فلان غاب اسمه عنى الآن نزيل مكة المكرمة وهو بخطيدها فرغت من كتابته فيما أظن عام نيف وعشرين بعد المائتين والالف وقد طالعته فوجدته يدل على فضلها وغزارة علمها وجودة فهمها خصوصا في معترك الخلاف بين العلماء هنا فضلا عمن تقلد منهن خطة الملك وتدبير الامم وعمن اشتهر منهن بالاقدام في ميدان الحروب وغير ذلك كثير وبالجملة فيرحم الله تعالى من قال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب * ولا التذكير فخر للهلال
ولو كان النساء كمن فقدنا * لفضلت النساء على الرجال

ذلك مارغبنا تعليقه في هذا المقام وبحمده تعالى قد تنجز تأليف هذه العجالة بمدينة باريس قصبة المملكة الفرنساوية وتبييضها بمدينة لندن حاضرة دولة الانكليز في بكرة الخميس الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام ختام عام ستة وثلثمائة وألف من هجرته صلى الله تعالى عليه وسلم وشرف وكرم وعظم بخط مؤلفه الفقير اليه عز شأنه السيد حمزة فتح الله

المفتش

المفتش الاول للعلوم العربية بنظارة المعارف المصرية والمدرس لدرسها العام بدار العلوم الخديوية موافقا من التاريخ الميلادى ٢٢ أغسطس سنة ١٨٨٩

كذا بالاصل المبيض منه هذا أما تمام هذا التبييض وهو النسخة الثانية بعد المسلمة للمؤتمر العلمى الشرقى فى استكهلم فقد نجز مساء يوم الخميس المبارك الرابع عشر من ذى الحجة الحرام ختام سنة سبع وثلثمائة وألف بمدينة الاسكندرية المحروسة والحمد لله أولا وآخرا وصلاته وسلامه على أشرف رسله سيدنا ومولانا محمد وآله

ولما قدمت كتابى هذا للمؤتمر المذكور فى القسم العربى منه وذكرت أثناء خطبة خطبتها ثمة ملخص فهرسته انتدب رئيس ذلك القسم يومئذ وهو الجهبذ الفاضل العلامة الكامل صاحب العطوفة أحمد مدحت أفندى رئيس الوفد العثمانى فى ذلك المؤتمر فارتجل خطبة بليغة باللغة الفرنساوية تقريظا على هذا الكتاب وأدرجتها بنصها الفرنساوى جريدة استكهلم التى تطبع فيها باللغة السويدية فى عدد ٢٠٥ المؤرخ فى ٤ سبتمبر سنة ٨٩ ولخصت المقام جريدة التيمس الانكليزية فى أحد أعداد الشهر المذكور وأدرجت تعريب تلك الخطبة صحيفتنا الرسمية (الوقائع) فى أوائل نوفمبر سنة ٨٩ وتعريب جواب حضرة الملك المعظم ملك السويد والنرويج (اسكار) الثانى الصادر لنا بوقوع ما قدمناه فى المؤتمر موقع القبول لدى حضرته الملوكية وأدرجت أيضا قصيدتنا التى اختتمنا بها ذلك المؤتمر وكثيرا من خطبنا به ❁ فأحببت أن أذيل هذا الكتاب بتعريب ذلك التقريظ وجواب حضرة الملك والقصيدة المذكورة اجابة لرغبات المحبين

(وها هو تعريب التقريظ المذكور)

❁أيها السادة❁ ان هذا القسم العربى قد رغب الى ايضاح بعض فوائد مؤلف صاحبى الشيخ وأذن لى بذلك وان كثيرا من السادة الاوروباويين يعلمون اللغة العربية ويجتهدون فيها لكن التلفظ بها من شيخ عربى الاصل فصيح اللهجة سريع البديهة ربما عاقهم عن فهمها حق الفهم اذ لم يعتادوا على سماع العربية من شيوخ بهذه المثابة (وصعب على الانسان مالم يعود) ❁فاقول❁ ان ذلك العالم الشيخ حمزة بسبب مؤلفه المختص بشؤن النساء المسلمات وواجباتهن ومالهن من الحقوق قد أحرز المجد وحظى بمزيد الشرف

بحل هذا اللغز وكشف ذلك المعمى والعثور على تلك الضالة التى لم تزل منشودة لاوروبا ولم يسبق لها حل معضلها الى الآن وكلكم يعلم ان اوروبا لم تتوجه افكارها لدرس ما يختص بالامور الشرقية الا منذ عهد قريب والى ذلك العهد لم تكن اوروبا تحسب الشرق الا صورة مجهولة أو شبحا غير ذى روح ولهذا لم توجه عنايتها نحوه ولا أجهدت نفسها فى معرفة حقيقته كما هو الواجب على كل عالم مدقق فأما قدماء المحققين من علماء الاوروباويين فقد بذلوا مجهودهم وأنفقوا موجودهم فى أن المرأة المسلمة لا يمكن تصورها الا كلعبة للتلهى وآلة للزينة والمحاسن الشرقية وأن لا صلاحية لها لغير الشهوة ۞ وجملة القول أن المرأة المسلمة على ماذكروا لا يمكنها البتة أن تكون ربة البيت ولا مدبرة المنزل ولا مولاة الدار ولا مربية الابناء وانما هى آلة شهوانية لقضاء أوطار زوجها أو سيدها الحيوانية وأغراضه النفسانية ولم يعلموا أن المرأة المسلمة لو كانت فى حقيقة الامر كما قالوا لم يكن الشرق الذى هو مطلع شمسها ومدرج عشها جديرا بأن توجه اليه عنايتهم ولا أهلا لطموح أنظارهم اليه ولا موضعا لشغل أفكارهم المستنيرة به وبذل مجهوداتهم فى الفحص والبحث عن جميع ما يخصه والا فما عسى أن يؤمل من أبناء تكونت من آلة شهوية أو لعبة حسناء وهل من المحتمل أن ينتج عن تربية امرأة بهذه المثابة مجردة فيما يظنون عن كل فضيلة سوى ذلك الغرض الشهوانى بنون صالحون للخطط السنية والمناصب العلية أو قواد ماهرون أو علماء نبغاء أو شعراء بلغاء أو جهابذة فضلاء الخ ومع أن أوروبا التى حققت أحوال الشرق بعد طول البحث والتنقيب ووضوح أمره لها قد وجدته جديرا بعنايتها وحقيقا بأن يكون مطمح أنظارها ومحلا لما تكبدته فى كشف حقائقه من النصب والتعب فأعجبت به وراقها أمره فشكرت لنفسها مسعاها وحمدت غب سراها لالا لا يؤمل هذا النتاج من آلة شهوانية ولذا لم يكن الشرق الآن موضوع أبحاثكم وبغية اجتهادكم واليه يساق حديثكم ويتلو قديمكم وحديثكم الا لفضائل بنيه المولودين فيه من نساء لا كما يحسبهن شعراؤكم بل كما وصفهن صاحبى العالم الشيخ حمزة فى مؤلفه الصغير الحجم نعم ان الكتاب المذكور صغير حجمه كما ذكرت لكن الشيخ المكرم قد جمع فيه آيات كثيرة قرآنية من كتابنا المقدس وأحاديث جمة نبوية فيما يتعلق

بالشروط والواجبات والحقوق المختصة بالمرأة مع أبيات شتى لأشهر الشعراء الذين شببوا بالنساء فضلا عن الفلسفة العقلية والآداب الحكمية ولا شك أن أوروبا تعرف من هذا الكتاب حقيقة النساء عندنا وحقائق شتى فى هذا الشان لم تزل خفية عليها حتى الآن ولو كنت على جانب عظيم من اللغة الفرنساوية لعددت ترجمة هذا الكتاب النفيس أول واجب على كيما تتسع دائرة شهرته غير أنى أؤمل من السادة الفضلاء المشهورين بمعرفة كل اللغات الافرنجية أن لا يتقاعسوا عن ترجمة هذا الكتاب الذى أعجبهم وأدهشهم وهو كتاب صاحبى الشيخ العالم الذى لا مثيل له فى بابه ولا عن نقله الى جميع لغاتهم ليتحفوا بنى أوطانهم بمشاركتهم فى معرفة مآثر سنية ومكارم جلية وحقائق بديعة بهية تختص بالمرأة الشرقية اه ﴿وهذا تعريب جواب حضرة الملك﴾

من رئيس السكرتارية

انه بناء على أمر سيدى الملك قد تشرفت بقبول ما ورد منكم مما قدمتموه لجنابه المنيف بصفة كونه رئيس شرف للجمع الثامن الشرقى الدولى من النفائس المعنونة فى الفهرست المصاحب لكتابى هذا * وقد كلفت من حضرته الفخيمة بابلاغكم جزيل ممنونيته ومزيد مسرته من تلك الهدية الفاخرة التى قدمتموها لسدته العلية وحضرته الملوكية

تحريرا فى ٧ سبتمبر سنة ٨٩ رئيس السكرتاريه
دوسلينج

وهذه هى القصيدة ومقدمتها تلوتهما أمام حضرة الملك

أيها المليك الهمام الجدير بالاعظام نجل الملوك الكرام والسروات الفخام حياك الله وبياك وأيدك ورعاك وحفظك وأبقاك ما أعلى همتك وأمضى عزيمتك وأكرم شيمتك وأطيب مقصدك وأعذب مصدرك وموردك قد حشدت الوفود من الاغوار والنجود لعلم فاح نشره وفضل لاح بدره ورغبت الى ملوك البلاد بعث فضلاء العباد ونبغاء الاوفاد الى هذا الرشاد فى هذا النادى فأوفدت اليك من خيار الاذكياء وجهابذة العلماء من جابوا القفار وخاضوا البحار وامتطوا الليل والنهار ولبتك الاعيان من معظم البلدان يحدوهم الى مقامك الرفيع شكر ذلك الصنيع وشوق

الاديب المنطيق أن تروق نباغته والعالم النحرير أن تروج بضاعته وكنت فى جملة الوفد المصرى الخديوى المجدى التوفيقى نصير العلم والفضل ورافع ألوية العدل فى عهد وزارة يانعة برياض عذبة الحياض زاهية الغياض أدام الله علاها فى ظل توفيق مولاها ايم الله لولا فضله المدرار وجوده الدرار ومكارمه الغزار لم نبلغ هذه الاوطار ولا شاهدنا تلكم الديار ولا تسنى لمثلى الوفادة الى المؤتمر السابع فى فينا وهذا الثامن الساطع بمجمع محبالله والحق أقول وليس الى انكاره وصول انى شاهدت المحفلين وحضرت المجمعين فلم أر كهذه العناية ولا مثل تلك الرعاية وانك أيها المليك لجدير بما قلت فيك ثم أنشدته القصيدة ونصها

حَمْدُ السُّرَى يا أَخَى العَودُ والناب * أنسالَ وَعْثاء إغباب وإخباب
فانت ان هودَتْ وَجْناك أو وَخَدَت * فما حُداك الأَحمَدُ أغباب
والمرء ان يحمد الاصدار عن نَهَل * فالمحمودُ أحمد ايراداً لمنتاب
حيّا الحيا مهرةً عيني وأَيْنُقها * بصالح من أجش الصوب سكاب
ولا ذوى بهجير عُشب خلتها * يوماً ولا خضها من بين أعشاب
فما أقلت ذراها فوق أسنمة * سوى هُمام على العلياء دأب
كشاف معضلة مُغرى بمكرمة * شهم أخى نهم فى المجد رغاب
ونضر الله وجه العيس كم حملت * للمجد فى البيد من جاب ومجتاب
وهى التى للمعالى قد سرت بفتى * منى لنيل المعالى خير طلاب
يصبو الى العرب من فاحت شمائلهم * كشمال بين جنات وأعناب
وليس فى صبوتى بالعرب من اضم * فى شرعة الحب من عار ولا عاب
ولا بنجد سقى نجدا وساكنها الـ * وسمى حيث صبابات وآرابى
ان الاعاريب هم كل الكرام وان * دارت رحا المجد كانوا خير أقطاب
أما درى من لحانى فى محبتهم * أن المها خلقت فى زى أعراب
فيا حداة أغذوا السير حيث وميـ * ض الثغر منها بارقال وارقاب
فعند سفح اللوى تلقاه كاظمة * صواحبات فؤادى يا أصيحابي

وكم

وكم بعذرة من صاب تجرعه الآرام كاس الهوى العذرى من صاب
وغادة من عريب الجزع امنع ممايين برثن ليث الخيس والناب
من أزدغامدة ليست بغامدة * لحظا اذا ما انتضته ليس بالنابي
طفقت أختلها شزرا وقد سفرت * عنها اللثام ونضت فضل أثواب
حتى رنت فرمت عن قوس حاجبها * كالسهم عن سية المرنان والقاب
وكم برامة للعشاق طل دم * من بيضة الخدر أومن قسورالغاب
وشادن لحظه المغرى بمهجتهم * خلاب أفئدة منهم وألباب
يقرى العوافي هاماوالعفاة ندى * بجوده بين أشلاء وأسلاب
ياويح مدمعي القانى فعبرته * كم أنجدتنى على نجد بتسكاب
وأخلقت جدة من حسن مصطبرى * وجددت خلقا من فرط أوصابى
وويح انسان عيني ان جنحت الى السلوى فلى منه مدوما أوب موتاب
أغرى العواذل بي من طول ماسفح العقيق بالسفح دمعا أى تسكاب
وهو الذى كان أغرانى بنظرته * فاعجب له كيف أغرانى وأغرى بي
فهو الذى ان كتمت الحب باح به * وهو الذى فى مهاوى الحب ألقى بي
وليلة حم فيها البين لاغمض الزمان عن مثلها ما بين أحباب
قالت وشامت قلاصى وهى مرحلة * للظعن عن صوب أخدانى وأصحابى
وحادى الركب نشوان الحداء فنشيار الهوى بابه تسيار مقباب
رفقا بمن فما من فوق أرحلها * سوى فؤاد معنى مدنف صاب
والعيس شنشنة فيها اذا اتأدت * بها حداتسراها عود أثواب
وحين اودعتنى وهى كاظمة * ذوب العقيق بجفن عنه صواب
سالتها عن دم من عندم طفقت * تذريه طورا وتذروه بعتاب
فأومأت للبنان الرخص تخضبه * فان من الدمع وكاف بميزاب
تقول مالنوى بي مولعا دنفا * باليتها بدلى فى الهوى مابي
لا يبعدنك عنى سير ناسكة * تفلى نواصى بيداء بجواب

علام يمتّ هذا البين تركبه * والبين للقلب منى شرّ خلّاب
كم خُلّب سحّ عنه صيّب غدق * أحيا الثرا الذى جـدو دعّاب
ولا زمّ الباب مرء ليس يبرحه * ولم يلج مرّة من ذلك الباب
أقمنا الرزق بالترحال مكتسبا * أوهلت قلبى أولى لى وأولى بى
أو أوفد الطيف وأذن للكرى فسى * يلزّنى انه عن مقلتى نابى
حسبى من البين جسم لا يغادره * سقم ونضّاح دمع غير نضّاب
والبين لا عاد قلب البين لا نعمت * لا قلب أغربة سميت بتنعاب
فقلت انّ جميع الامر عن قدر * لكن على المرء امساك بأسباب
ودون ورد طلابى المجد كم قطعت * أعناق آمال باسلماى طلّاب
ومادرى عاذل قد لجّ فى عذلى * أن المعالى أحفادى وأحنى بى
ولم أجاوز شبيبتا فى لبانتها * ولا الاخصّ فما عذرى لمتاب
على الامانى قدماهت ركيتها * بفتح ما كان دون الحاج من باب
كم جائح بالثريا راضه سفر * فوق الثرى بين أكوار وأقتاب
انّ الثواء وآه والقصور قبو * ر العاجزين ولا ايراء للخابى
ومن بغى نيل مجد وهو فى دعة * فقد بغى من صفا قدرًا احلاب
والمرء فى موطن كالدرّ فى صدف * والتبر فى معدن والنبع فى قاب
والسيف مثل العصا ان كان مغمدا * وزامر الحى لا يحظى باطراب
وأزهد الناس فى علم وصاحبه * أدنى الاحبة من أهل وأصحاب
فلو شهدت عبابا خضت بلجّته * على سفين بجنح الليل خبّاب
يطفو اذا خفقت فى الماء أجنحة * من تحتها كل غوّاص ورسّاب
تجرى فى النسيم أذيال مصبغة * كالخود تختال فى أذيال جلباب
وان سرى شمأل ماست بنسمته * عطفا كغيد ثناها فرط اعجاب
ظمأى على الماء كعيس شفّها حرق * من تحت أسقية ملأى وأوطاب
تسرى بصرطويل لا يقطّعه الشغيل * يوما بأوتاد وأسباب

ايامنا

أيامنا كلها من طول ما عصفت * فيه الرياح بسحب غير منجاب
كليلة من جمادى لا يفرقني * ليلا بها بين أطلال وأطناب
وأدهم لمن حديد خلقه بجر الشيزى وقد علقت منه بأذناب
يجرى على عجل من غير ما وجل * فكان أسرع ذهاب وأواب
يصعد الماء بالنيران أبخرة * كالسحب تدفعه قسرا بتجذاب
أما أنا فبحمد الله قد لبقت * بي المعالى كأشفار بأهداب
فلا عليك اذا أعيات يعملتى * طلاب مجد فان المجد طلابى
وكيف لا تطلب العليا من حظا التوفيق أولا تلقاه بترحاب
أبت مجادة مصر أن تثوب لها * حتى أتى فرأينا الآيب الآبى
وأصبحت برياض من خلائقه * مبارك العلم فيها فضله رابى
يسوسها فى حمى التوفيق كل فتى * لكل خطب ملم أى غلاب
واننا وفد توفيق الى ملك * سميدع من سراة قبل صياب
نجل الملوك الاولى يسرى بسيرتهم * عرف الصبا ينفح الدنيا بتطياب
نجل الملوك الاولى للعدل قد سلكوا * نهجا أتوا بيته من خير أبواب
نجل الملوك الاولى شادوا العلى وبنوا * بيتا من المجد موسوما بانجاب
اطرا امدحه اطراب بسيرته * فيا أحيسن اطرائى واطرابى
وهو المليك الذى فاق الملوك علا * أربت على عد حساب وكتاب
فلا يفى بقليل من مآثره * مدحى وسيان ايجازى واطنابى
يلقى الاعادى بوجه منه ليس له * ظهر وطرف على الهيجاء وثاب
وللندى منه فى يوم القرا يد * تحيل أزمة اجداب لاخصاب
لكنها فى عوان الحرب مستعر * على العدى أججت من غير اثقاب
وشيمة فى الملوك الصيد أنهم * فى خطتين فارغاب وارهاب
تقرى الجوارح أشلاء الكماة وتقرى الضيف بابا حبا من غير حجاب
وليس عزف المثانى والمثالث اطراب الكمى ولكن عزف أحضاب

ما النظم والنثر من مدح ومن غزل * كالنثر والنظم من سيف ومن غاب
أحيا حزايا الاعاريب الكرام باسـ * ـتكهلم ما بين أخلاق وآداب
شمت الخورنق بل غمدان ذي يزن * فيها كما شمت فيها كل غاب
وذوالمجاز جلت فيها حقيقته * صنع البديع باغراب واعراب
أما عكاظ فسائل ان تشأ نبأ * عن قسه فهو فيها كل خطاب
كالكنت كرلو ومافيهم موازنه * الااذا وازنوا تبرا بتوراب
لوأن قحطان في الدنيا وشاهدها * لقال هاتيك أخلاقي وآدابي
أسكار الثان قد أحيا العلوم بها * فأصبحت كخضم بين أثغاب
اسكار الثاني قد أحياما آثركم * ياعرب باحسنة فيها بعد أحقاب
لقوم يعرب عرف في ممالكه * يفوح من ذكر أسماء وألقاب
بدا لنا بعد اكرام وفادتنا * كالبدر أسفر عنه صدر محراب
فوافق الخبر من معلاه مخبرا * زان المديح بأنساب وأحساب
وخلت من فرط جدوى من ندى يده * عند القرى كل سلب محض ايجاب
قلدت جيدي نشانا شاقه شغف * بالعلم يحدوه حادي أصيد حابي
كما تمثلن مدحا لازال به * ربع القوافي خصيبا دون اجداب
فها كها من نسيج العرب غانية * زفت الى كفئها من بين أتراب
عقيلة كان مولاها يضن بها * كبنت علق لا تبدو لخطاب
زهت بحسن قبول من علاك كما * زها من البسر تذنوب بارطاب
قالت وطالعها الميمون أرخه * فسد با آخرها من غير اسهاب
يعيش اسكار كي ترقى العلوم به * عزا مزينا بأنجال واحباب

هو ترخيم علقة

سنة ١٨٨٩

﴿يقول مؤلفه حفظه الله﴾ ان الجناب الامجد والملاذ الاسعد حضرة محمود شكري بك خليفة قلم تركي بالمعية السنية قد شرع في ترجمة هذا الكتاب الى اللغة التركية كما أن

حضرة أحمد زكى أفنــدى مترجم مجلس النظار ومترجم شرف الجمعية الجغرافية الخديوية قد أخذ يترجمه الى الفرنساوية وان تينك الترجمتين ستطبعان بجرنال ترجمان الحقيقة تحرير عطوفتلو مدحت أفندى المومى اليـه فى خطبته المتقدمة حسبما أعلن هو بذلك اثر عودتنا من المؤتمر

﴿ يقول خادم تصحيح العلوم بدار الطباعة العامرة ببولاق مصر القاهرة الفقير الى الله تعالى محمد الحسينى أعانه الله على أداء واجبه الكفائى والعينى ﴾

يامن حليت الانسان بحلية الادب واصطفيت من خلاصته سيد العجم والعرب سيدنا محمدا الذى تممت به مكارم الاخلاق ومحاسن الشيم وجعلته أفضـل الانبياء وأمته خير الامم (نحمدك) على مامننت به علينا اذ جعلتنا من أمته وهديتنا بهديه وسلكت بنا سبيل سنته وجعلتنا بحمل ملته وحفظ شريعته فصل وسلم اللهم عليه وعلى اخوانه من الانبياء والمرسلين وآل كل والصحابة وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ﴿أما بعد﴾ فغير خاف على كل ذى فطنة صافية وفطرة سليمة وعقل صـقيل وقريحة رائقة مستقيمة يقف عند الحق ان لاحت لوائحه ويذعن للصواب ان لمع بارقه وسطع واضحه لا يتعامى عن بوادى الآيات البينات ولا يتغابى تائها فى بوادى الجهـالات والضلالات جلا مرآة فكره بجلاء التفكر فى آيات الله وواضحات الدلائل ومنبلج السنن فوضحت له سبل الهدى وسلك الى الدين القويم الذى لا يمكن سليم العقل الا أن يؤمه بأوضح سنن أن الله اصطفى نبيه صلى الله عليه وسلم من جميع خلقه بشيرا ونذيرا وأرسله رحمة للعالمين سراجا منيرا وجعل شريعته ناسخـة للشرائع سهلة نهلة وملتـه حنيفية سمحة خيرملة وأنزل عليـه كتابه العزيز الذى أعجز مصاقع البلغاء وعياهر الفصحاء اذ كانت معجزة كل رسول من جنس ما تفتخر به أمته فيما بينهم وكان افتخار العرب بالفصاحة وبارع البلاغة فأنزل عليه هذا الكتاب المجيد فقطع المعارضين وكبح المعاندين وأقروا بأنه لا ينبغى لهـذا الكلام أن يكون من مخلوق ولو أبلغ منطيق نحرير وليس من طاقة أعظم الناس بلاغة وفصاحة أن يأتى بشئ

من مثله ولو أيسر اليسير ما فرط من شيء من أمر الدنيا والآخرة يا من يفهمه ويعلمه ولا غادر مثقال ذرة من محاسن الآداب ولطائف الكمالات الدنيوية والأخروية يا من يتأمله ويتوسمه وأظهر بعض رموزه بالسنة النبوية والاحاديث المصطفوية فوضحت شريعته صلى الله عليه وسلم لمن يفهمها ويتأملها وانبلجت حججه لمن يتدبرها ويعقلها ولما كانت أسرار ديننا هذا الدين القويم ولطائف صراطنا هذا الصراط المستقيم عامة لجميع أهله كبيرهم وصغيرهم ذكرهم وأنثاهم وحكمه البالغة غامضة الا على من غاص بحره فاستخرج دره وكرع من حياضه ونزه لبه في غياضه ظن كثير ممن لا دراية لهم بأسراره ولطائفه ولا حام حول عوارفه ومعارفه أنه أهمل كثيرا مما يتعلق بشأن الصغار والنساء وعاب كثيرا من أحوال الرجال والنساء بما شاء اذ أشكل عليه أمر احتجاب النساء عن الرجال والتزويج بأكثر من واحدة وغير ذلك من الاحكام الغامضة التي لا يقف مثله عليها ولا يعثر لها على فائدة فانتدب للرد عليهم العلامة الهمام السيف في دين الله الصمصام نابغة هذا الزمان وسحبان هذا الآن الاستاذ الاكرم والشهم الافخم الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للعلوم العربية بنظارة المعارف المصرية والمدرس لدرسها العام بدار العلوم الخديوية فصنف هذا الكتاب الذي فاق نظمه عقود الجمان لطفا وحسنا وحلا لذوق قارئه وراق لفظا ومعنى فكشف فيه عن مخدرات بعض هذه الاحكام اللثام وأظهر بعض خباياها لمن أنصف وحول الحق حام فشكر الله له هذا الصنيع وجزاه أحسن الجزاء وأجزل له في دار الثواب جميل الحباء ولما قرأه واطلع عليه وظهرت له نفائسه وانجلت بين يديه جناب الوزير الكبير ذو المقام الرفيع والقدر الخطير نافذ الآراء بفكره المستنير البدر المنير والعلم الشهير السميذع الالمعي واسع الانظار ذو الدولة جناب رياض باشا ناظر الداخلية والمالية المصرية ورئيس مجلس النظار

سامي الجناب الذي فاق الورى شرفا * مهذب النفس راق أرفع الدرج
ذو العزة المرتجى الباشا الذي خضعت * له الوجوه وجدت هامة الهمج
هذا رياض الذي جلت مفاخره * وبدر طلعته يغني عن السرج
هو الجواد الذي يولي مكارمه * صفوا ويلقى الورى بالمنظر البهج

يجري

يجرى مع الحق فى كل الامور على * نهج الصواب بلا اثم ولا حرج
يغضى حياء ويبدى البشر مبتسما * لمن يسائله فى شدة الحوج
يعلى الافاضل ان جاؤا مجالسه * لطفا وعطفا ويقصى كل منتفج

لازال بدر طلعته مزهرا فى مطالع القبول بالغا من مولاه غاية المأمول قام بطبعه أدام الله حضرته وأكمل فى رياض العز بهجته ونضرته بالمطبعة العامرة ببولاق مصر القاهرة فتم طبعه بحمد الله تعالى وبرز محتجبا بهذا الجمال رافلا فى حلل البهاء والدلال في ظل الحضرة الفخيمة الخديوية وعهد الطلعة المهيبة البهية التوفيقية حضرة من أجرى أمور رعيته على نهج السداد فبلغوا من الثروة والرفاهية غاية المراد وسلك فى اصلاح أحوالهم سبيل الرشاد

ملك أقام القسط حد حسامه * واليمن كل اليمن فى أيامه
أسد تخاف الأسد سطوة بأسه * يفرى العدى من عزمه بسهامه
قاس على الاعداء وهو مهذب * نام الورى من عدله بسلامه
وسع الانام بحلمه وبجوده * فالكل حىّ من ندى انعامه
بر رحيم محسن من لطفه * يشفى حليف السقم من أسقامه
ويلاطف الضعفا ويكرم نزلهم * ويزيد أهل الفضل من اكرامه
يعفو عن الجانى المسىء تكرما * وهو القدير على جزا إجرامه
يا أيها الملك العزيز ومن به * سعد الوجود وعز من أحكامه
عطرت من رياك مصر فأصبحت * زهرا تضوع عرفه بكمامه
أخصبت منها المحل فهى لحسنها * روض نضير من ربيع غمامه

أدم اللهم سدته ملتثم الشفاه ومأمن كل خائف أواه وأطل بقاء حضرات أنجاله الكرام وأشباله الفخام ملحوظا هذا الطبع اللطيف والشكل الظريف بنظر من عليه جميل أخلاقه مزيد اللطف يثنى حضرة وكيل الاشغال الادبية محمد بيك حسنى وكان تمام طبعه وكمال ينعه فى أواسط آخر الربيعين سنة ١٣٠٨ من هجرة سيد الثقلين صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون

﴿ ولما تم بدره وابتسم زهره قرظه مؤرخا عام طبعه الالمعي الاديب واللوذعي الاريب الشيخ طه محمود قطارية الدمياطي أحد الجهابذة المصححين فقال ﴾

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

باسم الله أينعت الباكورة وأثمرت المساعي المشكورة نحمد الله من جعل توفيقه دليل رضاه ورتب حبه على طاعة حبيبه ومصطفاه من دال الحق بدولته وذلت عزى الباطل بعزته فصل اللهم وسلم عليه وعلى من ازدلفوا اليه واطمئنا في سلكهم واحملنا في فلكهم حتى نكون ممن صلح الفاسد بهديهم وعلى العاطل برأيهم انك سميع الدعاء فعال لما يشاء ﴿ هذا ﴾ وان من صفاوتي أن اطلعت على (باكورة الكلام على حقوق النساء في الاسلام) مؤلف الامام العلامة حضرة الاستاذ الشيخ حمزة فتح الله فألفيته كتاب من صدع بأمر الدين ورأب صدع القلوب من شبه الملحدين كتاب من أوتي قسطاسا من الحكمة وفصلا من القول ورزق بصيرة نافذة في المشكلات أرأيت نفوذ النور في الغلس أو النار في القبس كتاب من شغف بقول الحق وكلف بنصرته على حين عزت أنصاره ودرست معاهده هتف به هاتف الغيرة على محارم الشرع أن قم فخذ بيد الضعيف ولا ترزأ أحد الزوجين شيأ مما كتب له بل أعط كل ذي حق حقه ولن ترى في القوم أسرع منه مجيبا ولا أفصح خطيبا ولا أقوم حجة ولا أصدق لهجة فدونك هذه الباكورة في ابانها فانها وربك قد أربت على بستانها وحسبك أيها النبيه بعض هذا التنبيه فما أنت من تقرع له العصا فصلها يحصل الخير كله في يديك وقف عليها تجد الثمرات كلها وقفا عليك

لا أعرف المسعاة مشكوره * مالم تكن للخير باكوره
عمل الأريب لما يكون له * نفع كنفع الروح في الصوره
والناس في المبنى سواسية * والفرق في المعنى وفي السيره
فاعمل لما تبقى به أبدا * حيا بك الاحياء مسروره
كم دارس بين المقابر لم * تدرس مآثر عنه مأثوره
واعمر قلوب الناس منك اذا * خربت منازل منك معموره

باذا الـ

بأذالك تمنعه وفضلك عمـ * ـمه لتلقى بعد مدخوره

لو أن تسمية الورى بيدى * لكنها ليست بمجبوره

لم أسم بالانسان غير فتى * أضحى صحيح العرض موفوره

متمسكا بشريعة سمعت * بثمارها جاءتك باكوره

صنع الامام الشيخ حمزة من * هو باذل فى الخير مقدوره

الفيصل المفضال خير أخ * للحق ينتظم منه منثوره

ببيانه رق البديع له * فأفاده بالرق تحريره

جادت لنا يده بتجريد * فى طيها الخيرات منشوره

رحم الشريعة لو عات بها * موصولة والاثم مبروره

فارغب اليها ان رغبتها * لهداك لا لهواك موفوره

واسمع لمن أنشا يؤرخها * حسنت بفتح الله باكوره

٢٣٤ ٦٦ ٤٩٠ ٥١٨

سنة ١٣٠٨

(فهرست باكورة الكلام فى حقوق النساء فى الاسلام)

صحيفة

﴿ تمت ﴾